إبراهيم عيسى
كل الشهور يوليو
رواية

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من موقع بستان الكتب

بستان الكتب

كل الشهور
يوليو

إبراهيم عيسى

كل الشهور يوليو

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © إبراهيم عيسى ٢٠٢٠
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

عيسى، إبراهيم.
كل الشهور يوليو: رواية / إبراهيم عيسى - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٠.
٦٦٤ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776743298
١- القصص العربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٨٤٦ / ٢٠٢٠

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: كريم آدم

إلى الذين يبحثون عن الحقيقة:
إنها تبحث عنكم.

كل شخصيات هذه الرواية حقيقية، وجميع أحداثها تستند إلى عشرات المراجع والمصادر، من مذكرات، ويوميات، ووثائق، ودراسات، وشهادات مسجَّلة، وسجلات رسمية، وكُتب، ودوريات.

١

لكمته الصدمة!

ما الذي جاء باللواء إلى هنا، وفي هذا التوقيت، وبتلك السرعة؟! هذه سيارته، وذلك بيرقها الأخضر، وها هي تقترب من المعسكر، تأتي من ناحية الميدان، تكاد تخترق موكب السيارات الجيب واللوريات الأربعين التي أمرها بالتحرك. لا وقت للتراجع، بل لا فرصة للتراجع، الآن وإلا لا آن سوف يئن أبدًا!

كان نزيف الدماء المفتوح بين رئتيه قد توقَّف، وربما يكون قد تجمَّد. حقنة المساء التي دبَّها ممرض صادفه في العيادة الأولى التي صادفها في الميدان منذ ساعة، لم تعالج نزيفه بقدر ما طيَّبته. لكن أنسته تلك الصدمة في هذه اللحظة أن له رئة، وأن بها نزفًا. كان قد تحسس صدره، ربما ليتأكد أن نزيفه لا يعيق عجلات السيارة الجيب التي يجلس بجوار سائقها الجندي ناشف العود والوجه، الذي لا يدرك «الماذا» يخرج الآن في منتصف الليل، و«لأين»! أما «لماذا؟»، فإن يوسف صديق يعرف. أما «لأين؟»، فلم يكن يملك في هذه اللحظة يقينًا تامًّا بذلك.

صرخ في السائق:

ـ اعترض طريق عربة اللواء فورًا.

قفز بسرعة من مقعده، وقد فتح الباب ولا تزال السيارة تتحرك بسرعة، فضغط السائق على مكابح الجيب فأصدرت صريرًا كأنه يحفر الأسفلت، وهو يرى البكباشي يوسف صديق يتقافز فوق الأرض يمنع جسده من الترنح، ويشيح له بيده القابضة على الطبنجة، ويزعق فيه:

ـ سلط نور الكشافات العالي على عربة اللواء الجيب!

يعرف السائق برفة رمش واحدة سيارة اللواء عبد الرحمن مكي قائد الفرقة الذي تقع تحت قيادته كتيبته ببكباشيها يوسف صديق، ويوزباشيها عبد المجيد شديد، بكل هؤلاء الضباط الذين يسيرون وراءه في سيارات الجيب مع لوريات الجنود، فكيف يمكن أن يسلط عليه الكشافات فتعمي رؤية الجندي زميله الذي يسوق سيارة اللواء؟! لكنه لا يملك إلا أن يفعل ما يأمره به قائده المباشر. ثم إن البكباشي يوسف صديق، بوجه محمر، وملامح متحفزة، وإشارات حادة، كان قد خطب فيهم منذ قليل، وقد تجمعوا في ساحة المعسكر، خطبة احتشدت بكلمات طويلة عريضة استملحها واستكيف منها جدًّا، فقد قال إنهم سيقومون معه بعمل خطير، وإنهم سيحكون لأحفادهم عليه. أعجبه في هذه اللحظة أن يغيظ سائق جيب سيادة اللواء أكثر، فظل ضاغطًا على زر كشافات الجيب، رغم أن البقعة التي وقفت فيها سيارة اللواء مكي قد ابيضت تمامًا.

كانت أوامر عاجلة وباترة قد خرجت من فم يوسف صديق مبللة برذاذ غضب، يأمر فيها الضابطين اللذين يركبان معه الجيب بالنزول شاهرين أسلحتهما معه ناحية سيارة اللواء مكي. كان الجو حارًّا حر الأسبوع الأخير من شهر يوليو، فتعرَّق الجميع، لكن اللواء مكي ببذلته الكاكي المؤنقة، وقميصه المهندم، ورابطة عنقه المحكمة، والقبعة العسكرية

التي لم يخلعها حتى وهو في سيارته، كان الأغزر عرقًا وبهوتًا، وهو يرى أشباح ضباطه يوجهون إليه مدافعهم، وهو ينكمش في أريكة السيارة الخلفية يتابع، وقد زاغت عيناه من ذلك النور اللزج الذي يضرب بصره. أحد الضباط يبدو شبحًا يشهر سلاحه تجاه سائقه، بينما الآخر يقف عند الباب على شماله بنفس الوقفة المتحفزة بسلاحه، أما الثالث فقد عرفه فور أن فتح عليه الباب ودس رأسه وراء مسدسه في صدره، إنه يوسف صديق. استنفر عروقه حتى نفضت، وصاح فيه:

ـ مين؟ يوسف؟!

يبدو أن يوسف لم يكن لديه وقت أو طاقة للإجابة على ذهول اللواء مكي، بل أذهله أكثر حين قال بلهجة ملجومة التوتر ومنضبطة العصبية:

ـ سيادتك مقبوض عليك!

أشار يوسف للضابط أن يركب مع اللواء، هنا بجواره، فاقتحم الضابط الأريكة متحمسًا حتى أزاح بجسده قائده الذي ارتجف وقد مست فوهة البندقية قميصه تحت الجاكت، فهمس بوقار يليق بقائد مأسور للتوّ:

ـ هل حياتي في خطر يا حضرة البكباشي؟

رد يوسف وهو يغلق الباب على الآسر والمأسور:

ـ أبدًا يا سيادة اللواء.

عاد يوسف صديق إلى سيارته، وسمعه السائق يتمتم بحنق وتعجب معًا: «الطريق الرابع، الطريق الرابع».

لم يفهم السائق إلا إشارة البكباشي له بالتحرك فتحرك، بينما سارت خلفه السيارات واللوريات، وقد رفرف بيرق اللواء على سيارته الجيب المحاصرة في سيرها الآن بين سيارة البكباشي التي تسبقه والسيارات الأخرى التي تتبعه، فشعر السائق ببعضٍ من رضا يتحول إلى كثيرٍ، فتمنى

أن ينزعوا بيرق القيادة من سيارة اللواء مكي ويضعوها على السيارة التي يقودها، فمن الواضح أن الأوضاع انقلبت، وها هو يريد أن يحوز أول ثمن لانقلابها.

تمكنت الحيرة من رأس يوسف صديق الذي هدر بالأسئلة: كيف يتركون سيارة اللواء تصل إلى المعسكر وتوشك أن تكشف تحركهم؟ أليس من المفترض الآن أن كل القوات التي تشارك في الخطة قد تحركت وتمركزت؟ فلماذا يعبر بينها لواء ببيرقه دون أن يحتجزوه ويقبضوا عليه كما هي التعليمات؟!

الخطة كما جاءته تتطلب منه أن يحضر بكتيبته لينضم للقوات التي ستحاصر منطقة القبة ومقراتها ومبانيها العسكرية، وتغلق الطرق المؤدية إلى المعسكرات في العباسية والهايكستب ومبنى القيادة في القبة، لكن ظهور سيارة اللواء عبد الرحمن مكي خرق ثقته الشديدة في هذا الهدوء الذي استقبل به منتصف ليل الثالث والعشرين من يوليو!

إنه يقود الآن كتيبته، هي في الحقيقة ليست كتيبة إطلاقًا، هي مجرد مقدمة كتيبة سلاح مشاة جاءت قبل قدوم الكتيبة الكاملة من سيناء، لتمهد وتهيئ المعسكر لاستقبال الكتيبة الأم التي تأخرت ولعلها لن تأتي. اثنا عشر ضابطًا ليس فيهم إلا عبد المجيد شديد هو عضو التنظيم، حتى زغلول عبد الرحمن مندوب قيادة التنظيم (الذي جاءه منذ ساعات حاملًا بطيخة لم يجد ما يشقها به إلا السونكي الذي غرزه في بطنها وطلعت حمراء الحمد لله، ولكنها لا يمكن أن تكفي ضباطه الاثني عشر ولا جنوده الستين، ولا يعرف مصيرها استقر في بطون مَن) تنحى به، وأخبره أن ساعة الصفر منتصف الليل، وكلمة السر «نصر».

جهز الكتيبة (التي ليست كتيبة إطلاقًا)، فقسم الستين جنديًّا (الذين لم

يكونوا جنود قتال وحرب أصلًا، فهؤلاء لم يأتوا بعد، وكان كل من يملك قيادتهم وتكوين كتيبة بهم في هذه الليلة مجموعة من الجنود السائقين والخبازين والنجارين والطباخين الذين يقومون على تهيئة وتجهيز الخيام والطعام): وزَّع بعضهم على ثلاث فصائل، يركبون ثلاث عربات، وكل جندي كانت ذخيرته مائة رصاصة، بينما أمر أربعين منهم بقيادة أربعين لوريًّا فارغًا بلا أحد. وكان مطلوبًا منه تسليم اللوريات حين يصل إلى القوات المتمركزة كي تمتلئ بجنود آخرين يذهبون بها إلى مواقع أخرى. هذا الموكب الكبير الذي قبض على قائد الفرقة اللواء مكي منذ دقائق ليس إلا منظرًا فقط: لوريات فارغة من الجنود، وجنود عبارة عن نجارين وطباخين وترزية. لف القلق على رقبته، لكنه فك اللفة بنفخة هواء من صدره!

لا أحد من الضباط يعرف شيئًا عن الخطة إلا في حدود مهمته ودوره، لكن الشك انتاب يوسف صديق مع استغراب كالغراب الأسود نقر صدره (كان قد نسي نزيفه تمامًا ونسيه النزيف)، فالخطة يبدو أنها لم تكن محكمة، بل لعلها انكشفت، فها هي سيارات قافلته تتوقف متلكئة متكأكئة فجأة، وأصوات تتداخل في ارتفاعها وزعيقها في هذا الصمت الذي يسود صحراء مصر الجديدة، فلا سكن ولا ناس ولا سيارات عابرة ولا أضواء ولا مباني مدنية، كلها معسكرات وخيام جيش يحفظها جنوده.

توقف السائق بالجيب قبل أن يأمره، والتفت إلى ناحية الطريق على شماله وفي مرآته العاكسة، وأخبر يوسف:

ـ فيه عربة جيب واقفة تتكلم مع الضباط.

انتفض يوسف صديق، وسب الطريق الرابع. لم يفهم السائق «الطريق الرابع» الذي نزل البكباشي صديق عليه سبًّا كي يشارك قائده سبابه، أو على الأقل يفهم ما هو هذا الطريق الزفت الرابع، لكنه قال لقائده:

ـ على فكرة، هذه عربة الأميرالاي عبد الرؤوف عابدين.

يا لهذه الأخبار السوداء المهيبة التي تهبط على رأس يوسف صديق! ها هو نائب قائد الفرقة قد جاء أيضًا! نعم، الخطة لم تنكشف، بل تعرت، ولعله يلحقها بأي ورق توت الآن وهو يندفع ناحية الأميرالاي عابدين.

كان عابدين قد رأى كتيبته تتحرك في منتصف الليل دون أمر منه ولا معرفة. يذهب هو إلى مقرها فوجدها تأتيه، والأضواء خافتة، وكأن أمرًا صدر لهم في الظلام. وصل إلى أقرب عربة فوجد فيها الملازم حسن شكري!

ـ ما الحكاية يا شكري؟

ـ طوارئ يا أفندم!

ـ من معكم يا شكري؟

ـ سيادة اللواء مكي في عربته يا أفندم.

التفت الأميرالاي عابدين ليتبين أخيرًا ببرق القائد، فشد قامته، وشق بقدميه مسرعًا نحوه. كان قد دنا تمامًا من نافذة سيارة اللواء مكي، ودخل برأسه فوق زجاجها المفتوح. لكن يوسف صديق لم يستطع أن يحبس ابتسامته خلف شفتيه، وقد رأى واقترب وسمع اللواء مكي يرد على استفسار نائبه عما يجري، بأن دعاه للدخول إلى سيارته:

ـ تعالَ، اقعد جنبي.

كان الأميرالاي قد قعد فعلًا جنب اللواء، وسأله:

ـ إلى أين يا سيادة اللواء؟

أجاب اللواء بكبرياء، مرفوع الرأس والصوت:

ـ إلى السجن.

بهت الأميرالاي عابدين، وعندما رأى يوسف صديق بجوار نافذة السيارة رفع عينيه إلى اللواء مكي الذي أومأ برأسه علامة الموافقة:

ـ بكباشي يأمر أميرالاي ولواء، ويحبسهما في عربة، يبقى رايح بهما إلى أين؟

ـ إلى السجن!

أشار يوسف صديق للجميع بمواصلة التحرك، وهو يوقن تمامًا أنه وحده، وعليه أن يتصرف بلا خطة ولا يحزنون، إنه في حالة تلبس الآن، تلبس لا خلع منه ولا انخلاع، يأسر قائده ونائب قائده! يتحرك بسيارته في المقدمة، وخلفه سيارة القائد (آه، يا للهول! لقد نسيت أن أنزع بيرق القيادة عنها!)، ثم ثلاث عربات تحمل ضباطًا وجنودًا، ثم أربعون لوريًّا ثقيلًا، وخلفها جميعًا سيارة اليوزباشي عبد المجيد شديد ومعه زغلول عبد الرحمن. لكن إلى أين وقد وضح وضوح الشمس في ليل يوليو أنه لا القوات تحركت ولا تمركزت، وهذه التعليمات بمنع أي سيارة عسكرية من العبور إلا لو كانت سيارات يقودها أو يأمرها أعضاء التنظيم، ومنع أي ضابط فوق رتبة البكباشي من التحرك بل والقبض عليه فورًا واحتجازه، لم ينفذ منها أي شيء؟! فها هو لواء وأميرالاي يرتعان ويتمشيان بلا مانع ولا حاجز حتى ارتميا في حظه! لكن لا بأس، ولا يأس، فالحماسة متقدة بين الضباط. هكذا شعر وأحس بعدما اعتقلوا قائديهما، ولعلهم كذلك أدركوا أنهم متورطون حتى الأذقان في هذا الحدث الخطير. يجهلون طبيعة العمل، لكنهم عرفوا طبيعة خطره.

قرار يوسف صديق الآن أنه سيتحرك وحده بخطته هو وبقواته الهزيلة تلك، فهي ليست أكثر هزالًا من القوات التي قرر أن يستهدفها، سيتحرك إلى مبنى قيادة الجيش ويحتله، وليحصل ما يحصل بعدها. فمبنى قيادة الجيش بجلالة قدره يحرسه سبعة جنود فقط، وذخيرة كل جندي فيهم خمس طلقات فقط، وربما تكون عشر طلقات لكل منهم، ولا مدرعات

تحرس، ولا دبابات تحمي، ولا مدافع منصوبة، ولا صفوف مرصوصة، هم سبعة جنود يحرسون مبنى يحكم جيش الملك فاروق!

أمر السائق بالالتفاف والتوجه إلى مبنى القيادة. نظر في ساعته «الجيوفيال» ذات السوار الجلدي، فلم يُصدِّق أن كل ما جرى لم يجرِ بعقارب الساعة إلا قرابة نصف الساعة فقط. حاول أن يتأكد فسأل السائق:

ـ الساعة معاك كام؟

رد السائق:

ـ لا أملك ساعة سعادتك.

أصبحت الآن يا يوسف صديق أمام الطريق الرابع فعلًا، حين هرع إليه أحد الضباط يركض بجوار نافذته المفتوحة، ويخبره لاهثًا أن الكتيبة توقفت في الخلف. ابتسم صديق وهو ينزل من السيارة يهز رأسه ويبرطم بشفتيه، فها هو العدو قد جاء من الطريق الرابع. حلف السائق بالطلاق أنه لو سمع البكباشي يوسف صديق يتمتم بكلمة «الطريق الرابع» مرة أخرى فسيسأله عنه!

كان يوسف صديق يسير بجوار الضابط بصمته اللاهث، وكلمات البكباشي ثروت عكاشة تدق في رأسه ملحًّا ومكررًا طوال اجتماعهم الأخير:

ـ إننا نتوقع دائمًا ثلاثة طرق لتحرك العدو في مواجهتنا، لكنه يأتي غالبًا من الطريق الرابع، فلا بد أن نتجهز بعد أن نتوقع الطريق الرابع.

ها هو الطريق الرابع جاءك يا يوسف. أسرع يوسف في طريقه مشيًا بقامته القصيرة، بخطوات أطول كثيرًا من قصر قامته، يتجه نحو الطريق الرابع أو الخامس أو الأزرق، ليس مهمًّا، المهم أن يعرف لهذه الليلة آخر! فإذا به وقد عبر سيارة اللواء المأسور (ونائبه)، (كأنهما يذكرانه

بطلة رأسيهما: «نحن معتقلان على فكرة»)، يخطف نظراته منهما إلى هذا اللوري الأول الذي توقف وقد نزل منه الجنود وأشهروا الأسلحة واحتجزوا بينهم رجلين بملابس مدنية، يرتديان قميصين أبيضين، كلاهما، وبنطلونين أسودين في الغالب أو لعلهما بخطوط رصاصية، طويلي القامة عنه، لكن وجهيهما مختبئان بين وجوه الجنود. شق الحلقة حولهما، فأفسح له جنوده الطريق، فوجد آخر من يتوقع أن يراهما هنا! لم يعرف هل يسعد طلقًا وباشًّا لأنهما هنا، أم يكفهر ويكفر بتلك الليلة لأنهما هنا! وجودهما يعني الفوز والخسارة في ذات اللحظة، النصر والهزيمة في ذات المكان! كانا جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.

ـ جرى إيه يا جدع؟

ـ ممنوع يا أفندي.

أما الجدع فقد كان ضابطًا من ضباط كتيبة يوسف صديق الشاردة. أما الأفندي فلم يكن إلا جمال عبد الناصر. الغريب أن أول من تم تطبيق خطة منع المرور والعبور للمدنيين والضباط عليه، هو جمال عبد الناصر نفسه! حاول عبد الحكيم عامر أن يكون حليمًا مع الضباط، إذ لم تنجح ثقة عبد الناصر في نفسه ولا في أداء كلماته في أن تردع الجنود والضباط من إحكام الحصار عليهما، بل وارتفاع الأصوات ونهرهما ليرحلا من أمامهم. لم يكن عبد الناصر يعرف من هؤلاء الضباط أو أولئك الجنود، ربما هم من القوات التي استدعاها قائد الجيش، لكن إن تعرفوا عليه وعلى عامر فسيقبضون عليهما فورًا، وربما هم من قوات تابعة لأحد ضباط التنظيم، فيصارح هؤلاء الأوباش المتنمرين بأنه قائدهم الحقيقي. أنهكه التردد، بينما ابتسامة عبد الحكيم عامر ورفقته معهم تطلي مرهمًا على حريقه. الجنود بضباطهم لا يعرفون من هذين المدنيين اللذين وقفا في الطريق

وحدهما دون صريخ ابن يومين في تلك المنطقة، وبأبيان الإفصاح عن هويتهما، أحدهما حاد متحفز، والثاني هادئ مازح.

جال جمال في خاطر يوسف صديق وهو حائر في سيارته يتجه إلى مبنى القيادة لينفذ وحده خطته التي لم يرسمها لأنه لم يكن قد خططها أصلًا. كان يفكر لو أنه يلتقي أو يتصل بعبد الناصر ليفهم منه ما الذي جعل الأرض كلها خلاء من أي قوات، وما له يمشي وحده وكأنه الوحيد الذي التزم بأن ينقلب مع الانقلاب! فلما شق حلقة الجنود المتجمهرين وهو يتسمَّع أصواتهم تترامى نبراتها المحتدة مع هذين النفرين، رأى عبد الناصر، فندت منه صيحة فرحة كتمها في قلبه، ولكنه سمع صيحته المكتومة تقول: يا كرم الله، من أراد أن يراه الآن فقد رآه فعلًا، أهو مصباح علاء الدين أرسله الله القادر إليه ليقول له ها هو عبد الناصر بين يديك، بل عبد الحكيم عامر هدية إضافية.

أزاح أجساد جنوده بيديه، وأمسك بكتف عبد الناصر الذي تقاسم معه حك مصباح علاء الدين فيما يبدو، فها هو عضو التنظيم قائد الكتيبة المنوط بها دور ما في الخطة، هو الذي وجده أمامه، لم يكن هناك وقت للأحضان، وقد كانت اللحظة تستحق، لكن يوسف انتحى بهما بعيدًا عن عيون ضباطه وجنوده وسيارة اللواء المأسور الذي لم يستطع أن يأسر عينيه ولا أذنيه التي يركزها من فوق زجاج نافذة السيارة المفتوحة.

سأل يوسف:

ـ ما الذي يجري؟

رد جمال بسرعة كأنه يملي برقية على موظف التلغراف:

ـ موعد الحركة انكشف، وقادة الجيش يجتمعون الآن في مبنى القيادة لاتخاذ إجراء مضاد!

كان جمال عبد الناصر، حين بدأ زكريا محيي الدين في شقة ابن عمه خالد محيي الدين حيث يجتمعون يقرأ من ورقة مرسومة ومكتوبة وموضوعة أمامه تفاصيل خطة الانقلاب، قد شق الشك قلبه حين لم يستأذنه زكريا في أن يتلو تعليمات الخطة، ثم حين أنهاها طوى الورقة ووضعها في جيبه، ولم يعدها فيسلمها إلى عبد الناصر الذي لم يترك الموقف دون أن يختمه بختمه فقال:

ـ نسبة نجاح هذه الخطة حوالي عشرين في المائة!

لم يعتبر زكريا محيي الدين رأي جمال طعنًا فيه كضابط أركان الحرب، فكلاهما اتفقا على هذه الخطة وعلى عشرينيتها المحتملة، بل اعتبرها «دلالة شجاعة، فنحن اليوم نخرج (هذا كلام عبد الناصر) لتعرف الأجيال القادمة أننا حاولنا أن نفعل شيئًا أمام هذا الفساد في الحكم، فليس مهمًّا أن ننجح أو نفشل، لكن على الأقل لا يقال إن البلد لم يكن فيه رجال».

لكن يوسف صديق يعرف الآن وهو يترك عبد الناصر وعامر ليركب سيارته العسكرية، بينما يمضي كلاهما لركوب سيارة عبد الناصر «الأوستن» المركونة بجوار الرصيف، أن نسبة العشرين في المائة قد صارت حلمًا. نعم هو قرر المضي قدمًا نحو مبنى القيادة، حيث كان ينتوي احتلاله، وأخبرهما أنه لم يجد شيئًا ليفعله، ولا خطة لينفذها، فقرر أن يبادر باحتلال مبنى القيادة. وافقه وأقره ناصر وعامر على قراره المرتجل وخطته التلقائية، لكن الأمر الآن اختلف، ولعله اختل، فهو لا يذهب ليحتل مقرًّا فارغًا بسبعة جنود حراسة، بل مبنى يمتلئ بقيادات الجيش بجنود حراستهم بآلاياتهم برجالهم، صحيح كلها عدة طبنجات في الأيدي، لكن ما يملكه هو الآخر هو عدة جنود من الخبازين والنجارين والطباخين والسائقين لا يصلحون للهجوم على كشك حراسة وليس مبنى قيادة! لكن عزيمته

لم تلن، وحماسته اتقدت أكثر، ولم يعد يفكر في أكثر من ضرورة أن يسرع لينقذ رؤوس زملائه التي باتت على وشك القطف. صارت الخطة إذن غداء قبل عشاء ثم يترك للأقدار قرارها في وجبة الإفطار.

كان موكب سياراته ولورياته (الفارغة) قد وصل في دقائق أقل من عشر إلى مبنى القيادة، وأسرع ونزل من سيارته ثم وزَّع الفصائل: واحدة للالتفاف حول المبنى من الخلف للحصار ومنع الإمداد والقبض على أي ضابط في طريقه للقيادة، وأخرى عند مداخل الكوبري لإقفاله في وجه أي قوات قادمة واعتقال كل من يحاول العبور بل وأي واحد يصل أصلًا إليه حتى لو فكر ألا يعبر، أما هو فقرر أن يكون على رأس فصيلة ممن تبقى من الجنود لاقتحام المبنى من بوابته الرئيسية. تفاجأ بأنها خالية، لا عربات عسكرية، ولا بيارق قادة، ولا حشد قوات، ولا أي شيء إلا الجنود السبعة فعلًا حراس البوابة بل والمبنى كله. أمر عساكره بالنزول لينتشروا بالخطوة السريعة مع ضابطهم إسماعيل الشريف ناحية البوابة. لمح عندها سيارة عبد الناصر يجلس فيها مع عامر لكن بملابسهما العسكرية. لماذا لم ينزلا؟! ثم لم يشغله على الإطلاق أن يسأل نفسه متى استبدلا ملابسهما المدنية وهو لم يتركهما إلا منذ دقائق، فقد تلفت ملتاعًا حين سمع طلقات الرصاص. كان جنوده الثلاثون من حماستهم، وربما من توترهم، قد بدأوا إطلاق الرصاص. لم يكن جنود الحراسة المبهوتون مما يحدث أمامهم أقل توترًا، فقد باغتهم الهجوم وهم مسترخون مرتخون، فانتفضوا فرقًا وفزعًا، وردوا الرصاص بالرصاص.

كان يوسف صديق يعرف أن ما يملكونه في طبنجاتهم، كما يعرفون هم، مجرد خمس إلى عشر طلقات لن تكفيهم للمقاومة دقيقتين، لكنهم فعلوا ما تعلموه، وهو الدفاع عما يحمونه ويحرسونه. لم يأمر بوقف

إطلاق الرصاص، ولا هو توقف إلا بعد أن فرغت ذخيرتهم. لم يشارك في إطلاق الرصاص، لكن هذه الدقائق أعادت إحساسه بالنزيف، حين شهد جنديًّا من جنوده يترنح من طلقة أصابته في صدره ثم سقط على الأرض قتيلًا. حاول أن يشير لأحدهم بالإسراع لغوث رفيقهم، فإذا بآخر يسقط جثة هامدة بجواره، لحظتها توقف أزيز الرصاص، وكفت البنادق والطبنجات عن إثارة هذا الضجيج المضطرب. فتحوا البوابة، فكانت أيدي خمسة من جنود الحراسة مرفوعة تسليمًا، بينما الجنديان الباقيان قد ساحا في دمائهما قتيلين عند العتبة.

أمر رجاله بنقل الجثث، والقبض على من تبقى من جنود القيادة، والبقاء في مكانهم لحراسة البوابة. ثم انطلق بعشرة فقط من الجنود إلى ساحة المبنى الواسعة التي تخلو من أي حياة، حتى إن نسائم ليل يوليو قد هجرت المكان، فكان كل شيء جافًّا ما عدا قميصه الذي تبلل بالعرق حتى الغرق. جرى خلفه الجنود وهو يأمرهم باقتحام البهو، ثم تخلى عن تعبير «اقتحام»، حيث لم يجد إلا الفراغ والخلاء مما لا يستحق اقتحامًا بل تنزهًا، فراغ يؤدي إلى السلالم الرخامية الملتوية بسقف عالٍ مرتفع وجدران هائلة بأعمدة رخامية فرعونية الهوى بلا نقوش، تخبئ خلفها مجهولًا، ففي الأعلى اجتماع القادة وضباطهم وجنودهم، وبالطبع سمعوا، ولعلهم رأوا، إطلاق الرصاص واندفاع الاقتحام، فليس أقل من أن فخًّا ينتظره مع جنوده العشرة، ورصاصًا سيلعلع بعد ثوانٍ في تلك الردهات الضيقة ووراء أسوار السلالم الملتفة وخلف الأعمدة المستديرة. فجأة أحس خلفه بيبادات تعدو، وأقدام تركض، وكعوب بنادق تصطك ببعضها. ضرب القلق في جنوده وهو يلتفت إلى هذه الأجساد المندفعة، وقد ظهرت الآن، فإذا بالصاغ حسن الدسوقي يأمر جنوده بالوقوف انتباهًا،

وتحية يوسف صديق، ويخبره أن البكباشي زكريا محيي الدين أرسله بعشرين جنديًّا للدعم.

ابتسم يوسف، أخيرًا ظهر أحد ما ليفعل شيئًا ما معه. هم الآن ثلاثون، فلا بأس، لنصعد واحدًا وراء الآخر مع بقاء البعض موزَّعين في الخلف، وتقديم آخرين كطليعة هجوم. تقدمهم يوسف صديق، وصعد الدرجات قفزًا، فإذا به أمام باب القائد العام، ويقف أمامه جندي واحد، كان جاويشًا بملامح جادة متخشبة، رافعًا بندقيته في مواجهتهم جميعًا، وحيدًا يواجههم ليدافع عن قادته في هذه القاعة الواسعة المغلق بابها الطويل العريض ببروزه ونقوشه الفخيمة. اندهش يوسف صديق من أن قادة الجيش لم يجدوا إلا جاويشًا واحدًا يضعونه أمامهم! أين فرق الحراسات والجنود والضباط؟! أيحرس قادة جيش الملك فاروق المفدى مجرد جاويش واحد؟! ثم اندهش أكثر وسط رجاله بالعرق والتوتر والقلق والتحفز والخطر والتجهم والحدة والعصبية والوجوه المحدقة والبنادق المشرعة والطبنجات المسددة والعدد المحتشد، من أن الجاويش لم يهتز له جفن!

صرخ فيه يوسف:

ـ ابعد يا ابني!

رد بيقين وفصاحة وثبات واطمئنان فلَّاح على رأس غيطه:

ـ لن تمر إلا على جثتي!

فكر يوسف صديق أنه لا بد أن يمر، ومن ثَمَّ ليكن على جثة هذا الجندي الشجاع الذي ينفذ أوامر قادته. أطلق يوسف رصاصة من طبنجته في لمح البصر، خاطفة وصائبة تمامًا، لكن على ساق الجاويش الذي تهاوى مع فرقعة عظمه وانفتاق لحمه على الأرض. تقدَّم يوسف إلى الباب الموصد يحاول فتحه فلا يقدر، فتراجع للخلف خطوات ليفكر ماذا يفعل، فإذا

بجنود الدسوقي يمطرون الباب بإطلاق الرصاص بغزارة، فيتطاير خشبه وتنثقب درفه ويتفتت قفله. فصاح فيهم يوسف صديق:

ـ مكانك! امنع الضرب!

كان الباب قد انفتح، فأدرك أن عدة كراسي موضوعة أو كانت موضوعة خلفه هي ما جعلته موصدًا أمامهم. أخذه المشهد عندما رفع عينيه إليه: أربع أيادٍ ترفع مناديل بيضاء من وراء بارافان (ذلك الحاجز الخشبي الرقيق والمنقوش في نهاية القاعة المظلمة). لما توقفت أصداء طلقات الرصاص، وانزاح دخان البارود، خرج الأربعة بمناديلهم البيضاء المرفوعة، كان رئيس أركان الجيش الفريق حسين فريد، ومعه ثلاثة آخرون فقط، كل كتّافاتهم تفصح أنهم أقل رتبًا وأوهى مناصب في الجيش. يبدو أن رئيس الأركان وصل بلا أركانه ولا قياداته وبقي بلا جنوده! لكنه كان ثابت الوقفة، رزين الحركة، متماسكًا بكبرياء تليق بقائد.

لم يخشَ يوسف من الملامة، ومن فرط تأثره بشجاعة قائده رفع أصابع كفه اليمنى المضمومة إلى جانب جبهته وأدى له التحية رافعًا كعبيه ساندًا على مشطي قدميه، فرد رئيس الأركان بإيماءة تحية تحافظ على كاكية اللحظة. لكن لم يتبادلا كلامًا لا لزوم له، ولا سلامًا بتحايا لا طائل منها. يوسف صديق فرغ من اللحظة ومن المهمة بأن أمر حسن الدسوقي بأن يقبض على رئيس أركان الجيش.

هبط حسين فريد السلالم التي صعدها قائدًا ونزل منها مطرودًا معتقلًا. كانت مشاعر الحيرة والغضب تتلاطم في صدره، لكنها لم تحنِ رأسه الذي ظل مرفوعًا يتأمل ضباطًا وجنودًا يحيطونه ويستقبلونه عند وصيد البوابة الداخلية، ويهبطون معه السلالم التي تنزل إلى الساحة المفتوحة المثقلة بهواء رطب. لكنه فجأة أحس برعشة في قلبه أنعشت كبرياءه، ومنحته صفاء

روح، وأنزلت سلامًا على معركة القلق والتوتر المشتعلة في نفسه، لما رأى ضباطًا يرفعون أذرعهم بالتحية العسكرية للقائد المقاد إلى السجن.

كان جمال عبد الناصر قد وصل إلى البوابة، وبرفقته عبد الحكيم، ولحق بهما أحمد شوقي ولعله سبقهما. كان ضباط حراسة قيادة الجيش الخمسة أول من رفعوا أذرعهم يحيون قائدهم. لم يتردد عبد الحكيم عامر لحظة فرفع يده بالتحية العسكرية، وتلاه جمال عبد الناصر، حتى بات صفان من الضباط والجنود يقفون انتباهًا على جانبي الممر الذي أفسحوه للواء حسين فريد كي يركب السيارة التي تنقله إلى السجن وسط تحية مهيبة. كانت جنازة تليق بميت مهم!

نظر جمال إلى الضباط الثلاثة الذين يصحبون اللواء حسين فريد، وقد اطمأن إلى أن الخطة لم تغفل هذه الخطوة، ولم تنسَ المكان الذي يذهبون بالقادة المعتقلين إليه. اختاروا المدرسة الحربية القريبة معتقلًا لكل الضباط الكبار، فالغرف جاهزة، والأسرَّة فارغة، والطلبة في إجازة صيف لن ترى مصر أحر منه حرية قريبًا.

قام يوسف صديق من قعدته يحط فيها إرهاقه وتعبه على مسندي كرسي، لم يكن يصدِّق حتى الآن أنه اقتحم بجنود من الخبازين والنجارين والطباخين مقر قيادة الجيش، لقد كانت وجبة مسمومة تلك التي أعدوها هذا المساء إذن، لن يسمح لنفسه بأن يأكل من طهي هؤلاء الجنود من هنا ورائح، هذا إذا عادوا إلى المطبخ مرة أخرى. كان يتنفس بهدوء، ويتخلى عن لهاث صدره، ويبرح الغرفة، ويستند إلى سور السلم، وينزل درجاته، وهو يسمع هسيسًا في الخارج، ووقع أحذية عسكرية، ودقات كعوب، وزحف إطارات سيارات، حين ضربته المفاجأة وكأنها فجرت نزيفه وفتقت رئتيه: لقد رأى الجاويش الذي رفض أن يسمح له بدخول غرفة القائد

العام جثة ملتوية وحيدة ترقد على بقع مفروشة من دم! لقد أطلق عليه الرصاصة في ساقه فكيف به غارقًا في رقع موته؟! تألم ألمًا دفعه للهرولة إلى البهو ثم إلى مدخل المبنى ليجلس على درجات السلالم العريضة العالية النظيفة واللامعة بين غبش الليل وتحت الأضواء الناحلة ليلتقط أنفاسه، فوجد الصاغ حسن الدسوقي واقفًا يكاد يأكل عقب سيجارته، وينفث دخانًا يتحول إلى دوامات في الهواء. ترك الدسوقي دوامات دخانه تتبخر، وجاء ليتمجلس بجواره، فسأله يوسف وجثة الجاويش ترقد داخل صدره تضغط على رئته العليلة:

ـ ما الذي أخَّر القوات كل هذا الوقت عن الحركة؟

رد الدسوقي مندهشًا:

ـ لم يتأخر أحد، كلنا تحركنا في الموعد المحدد، الساعة الواحدة صباحًا!

احتل الذهول وجه يوسف صديق، والدسوقي يكمل:

ـ أنت الذي تحركت مبكرًا ساعة كاملة، لكنها ساعة كانت كفيلة بإنقاذنا.

أضاف وهو ينفث سيجارته مطلقًا دواماتها مجددًا، بينما يوسف صامت يكمل ذهوله براحته:

ـ مبروك يا حضرة البكباشي.

كان الدسوقي لحظتها يقف ليحيي جمال عبد الناصر الذي وصل إلى مكانهما وخلفه عبد الحكيم عامر. كان الأول صامتًا لا صوت حتى لأنفاسه، بينما كان الثاني طلقًا مبتسمًا يهم بمعانقة يوسف صديق الذي نهض ليجد نفسه في حضنه.

٢

جمر النار يتجول في عروق مرتضى المراغي، يحرق كرات دمه البيضاء والحمراء، وهو يتمتم مخنوقًا، يفك رابطة عنقه، ويفتح نافذة شرفة مكتبه، فتهب عليه نسمات بحر الإسكندرية بموجه يتلاطم مع صخور الكورنيش الجرانيتية، حيث تمارس الدنيا لعبتها اليومية المفضلة بين البحر والصخر، فلا يخفف رطب الهواء من نار الجمر ولا يبدد دخان غضبه. من صباحة ربنا وهو يحاول أن يوقظ الموتى الأحياء الذين يرتعون في شواطئ القصر فلا مجيب ولا مستجيب! هذا الكورنيش، بسياراته، وناسه، والعابرين عند سوره، والمتغازلين بشرًا وسمكًا عند صخوره، وباعة الجيلاتي بعرباتهم المتجولة، وتاكسيات الإسكندرية التي تتلون بأحمرها وأسودها تقف لتقل وتتوقف لينزل منها ركاب بملابس البحر، وصخب العائلات القادمة للعوم، والشماسي التي تنتشر بألوانها تغطي رمال الشاطئ، تغريهم جميعًا في تلك القصور الملكية بالشعور بعادية اليوم وطبيعية الحياة وهدوء البلد.

إذن، ليس في الإسكندرية غيري من يهتم يا أولاد محمد علي الدخاخني بعرشكم الذي يبدو أن النمل يأكل منسأته! ولعل النمل قد وصل الآن إلى

تلك الكف البيضاء البدينة التي تقبض على العصا، وانتشر بين أصابعها، وصاحبها أغفل من أن يحس بالدبيب وبالنقر!

هل هناك في الدنيا وزير داخلية مثله يحاول الاتصال بالملك منذ ساعات، وهو يردد على مسامع الجحش الذي يدَّعي أنه أمين الملك أن هناك خطرًا يستلزم الحديث مع جلالته ثم لا يحادثه الملك متسائلًا أو منزعجًا؟! ثم أين قائد عام الجيش نفسه الأخ كونستابل البوليس الذي فرضه الملك علينا قائدًا عامًّا للجيش؟

كان مرتضى المراغي يسب ويلعن في الفريق محمد حيدر الذي خرج لرحلة صيد بحرية ولا حس ولا خبر منه ولا طريق إليه، لعله ذهب ليكتشف أمريكا أخرى مثل «كولومبوس» بينما جيشه يرتع بمدرعات وأسلحة في شوارع القاهرة الآن!

* * *

كان الملك فاروق يضرب الموج بذراعيه على شاطئ المنتزه بعد أن استيقظ متأخرًا. لماذا تذكر اليوم تحديدًا كيف كان يصحو من النوم حين كان طفلًا؟ صوت فرقة موسيقية تقف تحت نافذة غرفته في قصر عابدين، خصصها أبوه الملك فؤاد لمهمة إيقاظ ولي العهد في باكورة كل صبح. تحضر الفرقة بعازفيها بملابسهم القطيفية والمقصبة والمقشبة، وبآلات على أذرعهم وأكتافهم، يتحركون في خطوات منتظمة، بينما هو في غطسة نومه، يتراصون في صفوفهم كأنهم على خشبة الأوبرا الخديوية، ممر واسع وعريض تحيطه الأشجار وتفرشه بلاطات الرخام المنقوشة، يتطلعون إلى الشرفة باستدارتها وأعمدة السور المخروطية، يقف في مواجهتهم المايسترو بعصاه، وينتظرون لحظة وصول الشمس عند سعف النخل ويبدأون عزفهم، سواء كانت الأمطار تهطل عليهم زخات

في عز الشتاء والبرد، أو كانت الرطوبة تمتص أجسامهم حرًّا ولزوجة في صيف القصر، فالعزف يستمر حتى يصحو ولي العهد من نومه على موسيقى من مقطوعات «بيتهوفن» أو «شوبرت» أو «باخ» (لا لم يكن «باخ» مفضلًا لديهم). تصل الموسيقى إلى مسامع المليك الناعس، فتتلمس وعيه، وتدغدغ غفوته، فيبدأ النعاس في الانسحاب. كلما كبر زهق من هذا الطقس المزعج، تمنى لو رحموه وتركوه ينام، لكنها أوامر ملك بأن يعزفوا فيعزفون، وأن يصحو فيصحو، خصوصًا مع هذه المربية الأيرلندية الصارمة السمجة التي إن لم يكن أبوه يضاجعها، فليس هناك أي سبب لتسلطها عليه وكأنها تربي «هنري الثامن» الملعونة! تحضر فتفتح أبواب الشرفة، ثم تطلب منه أن يقف ليطلق إشارة من إصبعه مع ابتسامة تجبره عليها ليلوح للفرقة الموسيقية بالرحيل. وبينما يتضرعون إلى الله شكرًا أن ولي عهدهم رزقه الله نوم العوافي، كانوا يعزفون مقطوعة شكر وهم يرحلون بنفس الخطوات المنتظمة التي جاءوا بها.

تذكَّر الملك الآن وهو يضرب الموجة الحنون التي عانقت صدره، شيئًا جعله يلتفت بوجهه من البحر إلى البر، ليتأكد أن علم ولي العهد مرفوع على صاريه، وإلا والله لأطار أعناقهم لو غفلوا. ارتاح عند نظرته إلى الشاطئ القريب، وها هو علم الملك، ويجواره علم ولي العهد. أعجبته نفسه جدًّا، وهي كثيرًا ما تعجبه، لأنه صاحب هذه الفكرة، ولم تكن فكرة منافق ممن يحيطون به تزلَّف بها ليكسب عطفه، بل هو من قرر أن يكون لولي العهد علم خاص به يرفرف بجوار علم أبيه في كل القصور الملكية والمباني الحكومية.

فاجأته موجة أعلى فأهبطته تحتها، فلما خرج برأسه صاحت فيه ناهد، بصوتها الأنثوي اللعوب الذي تتلاعب به أكثر وأمهر، وقالت:

ـ حاسب جلالتك أحسن تغرق!

رماها بكف يده بالماء، فطرطش في وجهها الأبيض المدور الذي طالما أعجبه وأسكنه وهو يغاضبها:

ـ مولاكِ لا يغرق أبدًا يا ناهد!

ضحكت فقد أثارت غيظه ومن ثَمَّ اهتمامه. تعرفه ناهد تمامًا، فإذا كانت قرابة السنوات الثماني التي أمضتها معه قد علَّمتها شيئًا، فهو أنه لا يمكن فهم هذا الرجل، فهو نفسه لا يفهم نفسه. طالما حلمت أنها ستتزوجه بعد أن يُطلِّقها من زوجها طبيبه الخاص، فانتهى الأمر بأنه تزوج من مراهقة تافهة غريرة وجعلها وصيفة لها! صحيح هي تسبح معه الآن في ظهيرة يوم يوليوي حار، ولا فرق بين جسديهما إلا شبر أو ذراع، لكنها باتت أبعد عنه منذ زمن.

كان فاروق ميالًا لصحبة ناهد هذه الأيام، يملها أحيانًا، لكنها في أغلب الوقت تحت إبطه، إن ناداها لبت، وإن أبعدها رضيت، مريحة للغاية، لعلها كانت تحلم بزواجه منها، ولكن لماذا يتزوج ممن يقدر على ألَّا يتزوجها؟ هذا ما لم تفهمه، ولم تدرك رغم ذكائها الذي يبهره كثيرًا أنه كان يريد زوجة بنتًا خامًا ليست خبيرة مثلها بالرجال.

خرج من الماء فتبعته، وهو يدرك أن ناريمان النكدة الغضوب تغلي في جناحها أو في قعدتها في شرفة المنتزه من مرافقته لناهد، لكن على هذه البنت أن تفهم أنه حر، لا أن تحاسبه على تصرفاته محاسبة طالبة في «السَّنية» لعيِّل تحبه في «السعيدية»، لا وقت لديه، ولا نية لتدليل طفلة ثقيلة الظل شكَّاءة، يوم سبوع ابنها أحرقت القاهرة الأعظم في الشرق. تذكَّر هذا اليوم الأسود، أو لعله الأحمر من وهج نار أحرقت قاهرته وكادت تقهره.

التفت إلى ناهد، وهي تنام على كرسيها الممدد بساقيها اللدنتين

وظهرها المنساب، فيتلألأ نهداها يطلان من حافة المايوه الأسود، مبللة بالغواية. وتذكر أنها هي التي أحست ذعره لما تفاقمت الحرائق بلظاها وشظاياها تتطاير إلى قصر عابدين، فقرر أن يُخرج أحمد فؤاد ولي عهده، ابن العشرة أيام، إلى قصر القبة، مصحوبًا بحراسة ليلحق بأخواته البنات، وأمر بتجهيز الطائرة في ألماظة بالوقود، وبإعداد حقائبه وحقائب زوجته ناريمان وبناته ليكون كل شيء معدًّا للرحيل عند أول إشارة بأن الفتنة صارت غضبة فتحولت ثورة. لقد قضى هذه الليلة التعسة وليلتها التالية الأكثر تعاسة بجوار الحقائب هو وناريمان (لم تكن الليلة الأولى التي يكتشف فيها أنه لم يحبها، ولكن كانت الليلة الأكيدة التي اكتشف فيها أنه لا يطيقها)، ينتظران قدوم الطائرة حتى القصر حين استدعائها، فلا طاقة له على أن يمضي في شوارع عاصمته المحترقة فيطوله حريقها، ولم يبرحا مكانهما حتى انطفأ الحريقان: حريق المدينة، وحريق قلقه.

كان الشاطئ هادئًا، والرمل صافيًا، والدوارق والكؤوس مليئة بالعصائر الطازجة التي تسبح فيها قطع الثلج، وهناك أطباق المأكولات البحرية مفصصة ومقشرة ومرصوصة، والمياه الغازية من نوع «بيبسي» المسموح به فقط في القصور، فأسهم الملك في مصنع تلك المياه الغازية يمنع الاستعانة بـ«كوكاكولا» منافستها تمامًا.

سمع أنفاس ناهد وهي تتنهد كأنها تريد أن تقول شيئًا، فلم يُعر قولها اهتمامًا بقدر ما أثاره تنهيدها، لكنه اكتشف أنها تتذمر من حسنين، أمينه الخاص، الذي جاء حاملًا صينية فوقها ورقة كتب نصها ليقرأها لجلالته مستعجلًا متعثرًا. أشار إليه تبرمًا بأن يقول ما عنده، فقال:

ـ اتصل بي المراغي باشا وزير الداخلية، وقدَّم التماسه للتشرف بالمثول أمام جلالتك.

رد الملك متبرمًا فوق تبرمه:

ـ ليه؟

أجاب حسنين:

ـ سألته يا مولاي، فأخبرني أنه يخشى حدوث شيء في الجيش في المساء، لهذا يريد المقابلة!

انزعج فاروق، لكنه لم يرد، ولعله لم يفكر. شعر للحظة بأن شيئًا أشل شيئًا آخر في عقله، لكن ناهد هي من تدخلت:

ـ وزير الداخلية لن يتركك في راحة أبدًا يا مولاي! المراغي باشا يريدك أن تصطدم بالجيش بأي وسيلة!

ثم مدت كفها الناعمة فوضعتها على كتف الملك، فأنهت شلل عقله، وأنعشت نغبشات تحت جلده، ثم مالت برأسها مبتسمة برضا وثقة:

ـ لا تهتم يا مولاي، الجيش ولاؤه لك أنت وحدك.

رفع فاروق نظرته بطيئة، وقال بلهجة أحب أن تكون مستخفة:

ـ قل له يكلم الفريق حيدر أو وزير الحربية.

* * *

عاد المراغي إلى مكتبه، وجلس خابطًا بجنب كفه خشب مكتبه، وكلم سكرتيره بينما يكلم نفسه:

ـ وزير الحربية إسماعيل شيرين زوج أخت الملك، فضلًا عن أنه وزير حربية منذ أربع وعشرين ساعة فقط، فهو لا يعرف عن الجيش شيئًا رغم أنه ضابط فيه، لكنه صهر الملك، فأي جيش هذا الذي سيعتبر صهر الملك وزيرًا عليه وهو صغير السن والخبرة وقاعد في القصر على حجر شقيق زوجته؟!

لم ينسَ المراغي لحظتها أنه كان وزيرًا لوزارتي الداخلية والحربية

معًا، حتى جاء الأخ شيرين هذا لينزع عنه قبعة الجيش ويترك له طربوش الداخلية.

رد السكرتير، ولعله المراغي نفسه من كان لا يزال يكلم نفسه:

ـ لكنه شاب محترم، ولا تنسَ أنه قبَّل يد الملك وكاد يركع أمامه، بل ركع فعلًا بلا خجل، وهو يدمع ويتوسل إليه: «أرجوك جلالتك عيِّن مصطفى النحاس رئيسًا للحكومة لترتاح البلد، طيب اجعل اللواء محمد نجيب وزيرًا للحربية وكل شيء سيهدأ». لكن الملك عيَّن صهره شيرين زميلًا للمراغي في الحكومة؛ وزيرًا للحربية على غير رغبته، ورغم أنف نجيب الهلالي رئيس الحكومة شخصيًّا الذي حلفنا معه اليمين صباح أمس!

إذن ليتصل بنجيب الهلالي، فهو رئيس الحكومة وهو المسؤول، وليخلص من قلقه:

ـ معالي دولة رئيس الوزراء، طبعًا رفعتكم تعرف أن التقارير تلال على مكتبي، عن حركة وسط الجيش، وأن هناك أسماء معروفة في تنظيم يخطط لانقلاب، وإن توقعاتي كما شرحتها لك قبلًا أنه سيتحرك في سبتمبر وربما أكتوبر.

رد الهلالي قلقًا:

ـ هذه معلومات أم تكهنات؟

أجاب المراغي:

ـ كانت تكهنات لغاية ساعتين فاتوا، الآن معلومات ومؤكدة، أبلغني اللواء أحمد طلعت حكمدار القاهرة أن هناك سيدة اتصلت به لتخبره أن ابنها الضابط ارتدى ملابسه العسكرية وتمنطق بحزامه ومسدسه، وقد وصلت إلى البيت عربة محملة بضباط من زملائه أخذوه معهم، وادعى أنها مجرد مهمة!

ـ وما الذي يقلق في هذا؟

ـ الذي يقلق أنه رجع لها بعدها بنصف ساعة، فالولد يخفي شيئًا!

ـ هل هذا يكفي لتعتقد أن هناك شيئًا يستحق القلق؟

واضح أن المطلوب من وزير الداخلية أن يبدأ بإقناع رئيسه أولًا بأن هناك مصيبة قادمة:

ـ نعم، إذا أضفنا هذا إلى تحركات من بعض العربات تحمل جنودًا وضباطًا.

ـ هل كلمت حيدر باشا؟

ـ مختفي في رحلة صيد!

ـ هل كلمت إسماعيل شيرين وزير الحربية؟

ـ كنت معتقدًا في البداية أنها تحركات غاضبة على تعيينه وزيرًا للحربية، لكني أستبعد هذا الآن.

ـ هل لديه معلومات عما يحدث؟

ـ ليست لديَّ أنا شخصيًّا معلومات عنه هو نفسه، فمعالي الوزير هو الآخر في رحلة صيد على يخته الخاص!

ضحك الهلالي:

ـ من الذي لا يصطاد من الجيش لنكلمه الآن؟!

ابتسم المراغي، وأجاب وهو يستعيد شيئًا من هدوئه:

ـ سأتكلم مع رئيس الأركان حسين فريد حالًا، هو في القاهرة، ومن الصعب أن يكون في رحلة صيد أيضًا!

أنهى المكالمة مع رئيس الوزراء، ثم طلب من سكرتيره مهاتفة اللواء حسين فريد فورًا. فلما رد رئيس الأركان عاد الجمر يغلي في عروق المراغي، فقد أجابه فريد:

ـ كل شيء هادئ على حد علمي، ويمكن الضباط رايحين في مجموعات يتفرجوا على مباراة كرة قدم.

ارتفع صوت وزير الداخلية:

ـ رايحين بيتفرجوا بالمسدسات والأسلحة يا سيادة اللواء؟!

عاد المراغي فتحدث مع رئيس الوزراء بعد أن فشل في التواصل مع حيدر وشيرين للمرة المائة. وسلمه السكرتير تقارير تلفونية من حكمدار القاهرة بأن الجيش يتحرك فعلًا.

ـ ألو، أنا آسف يا دولة رئيس الوزراء، لكن يبدو أنني المفلوق الوحيد من الذي يحدث، معلوماتنا أن الجيش فيه حركة غير عادية، وأنهم سيقومون بشيء كبير الليلة!

ـ وإحنا نقلق نفسنا عشان إيه يا مرتضى؟! أنا قرفان، واللي يحصل يحصل ويروح فاروق في داهية!

لم يكن عند المراغي أي مشكلة أن يروح فاروق في داهية، لكنه كان قلقًا إن البلد نفسها ممكن تروح معه في ذات الداهية. حين خرج إلى الشرفة كان قد قرر، وقد باغته الليل الذي غطى بحر الإسكندرية، أن يغادر مكتبه ويذهب إلى بيته بفضول وحيد فقط هو: إلى أي داهية سيذهب فاروق؟ لكن السكرتير ظهر فجأة خلفه، وأخبره أن إسماعيل شيرين على التلفون. هرع إلى المكتب، وأمسك بالتلفون، وقال بهدوء يغلي:

ـ أهلًا يا معالي الوزير!

رد إسماعيل شيرين وصوته يوحي بأنه يقشر جمبري على مهل:

ـ خير يا مرتضى باشا؟ أبلغوني إنك كلمتني أكثر من مرة!

ـ لا أبدًا، كنت عايز أطمئن كم سمكة اصطدتها؟

ـ وإيه بس لزوم التريقة؟

ـ اسمع، لقد اتصلت بك لأخبرك بأن ضباطًا في الجيش يتحركون في تجمعات مريبة، وينوون على حدث كبير الليلة. واتصلت بحيدر باشا طلع في رحلة. واتصلت بالملك كان بيعوم. واتصلت بك كنت تصطاد. واتصلت بالهلالي باشا فقال سيبهم يتفلقوا!

ضحك إسماعيل شيرين، وقال:

ـ طيب، أنا سأتكلم مع حيدر يتفلق معانا شوية.

* * *

كان الفريق حيدر مضطجعًا على مقعده الوثير المفضل أمام شرفة واسعة في فندق «سان ستيفانو» تطل على البحر، ويدير قطعًا من الثلج في كأسه، ومغمورًا بهدوء كأنه لا يزال على قاربه يسمع هدهدة الموج حوله، عندما قدَّم إليه خادمه التلفون في هذه الصينية المذهبة، وأخبره أن وزير الحربية على الخط. ابتسم، فها هو إسماعيل شيرين صار وزيرًا للحربية مرة واحدة، وبمفاجأة يقعي لها ضباطه ضحكًا، فاللقب والرتبة والمنصب والمهمة أثقل من أن يتحمل شيرين السير بها درجتين على سلم قيادة الجيش في القبة. أجاب حريصًا على أن يرى شيرين ضحكته في صوته:

ـ أهلًا يا معالي الوزير.

لم يحتمل حيدر باشا الثرثرة التي نقلها إليه شيرين من معلومات وزير الداخلية، فقاطعه حاسمًا:

ـ يا شيرين، بوليس مصر يخالط الحشاشين كثيرًا، ويتخيلون خيالات وتحشيشات مثل حكاية الانقلاب التي يخافها المراغي!

اعتبر إسماعيل شيرين أن المسألة منتهية، فها هو القائد العام للجيش يقطع بأنه كلام حشاشين، فما كان منه إلا أن اتصل بوزير الحشاشين

ليطمئنه على صنف حشيشه. فما كاد المراغي يسمع كلام وزير الحربية حتى قام من مقعده وهو يصرخ في التلفون:

ـ والله يا شيرين إنت وحيدر والملك ما حتعدي الليلة إلا وحتفوقوا من المخدر!

ثم قرر أن يرمي حية موسى، فأضاف:

ـ وكلام حشاشين بحشاشين بقى، الملك أصدر أمرًا باستعداد يخت «المحروسة» للإبحار!

نطق شيرين بسرعة خاطفة:

ـ لقد فعلها ابن الحرام!

أغلق وزير الداخلية التلفون، ونادى على سكرتيره الذي جاء ملهوفًا، فهو يسمع منذ الصباح كل شيء:

ـ اجمع لي كل القيادات الموجودة في إسكندرية حالًا، وافتح لي خطًّا مع حكمدار القاهرة فورًا!

انطلق السكرتير لينفذ، لكن المراغي أوقفه بصوته:

ـ اسمع، اتصل أولًا باللواء محمد نجيب، وحوِّل لي المكالمة حالًا.

عاد ليجلس على كرسيه ويدق بأصابعه على سطح المكتب حين رن التلفون:

ـ سيادة اللواء نجيب مع معاليك.

ـ ألو، مساء الخير يا سيادة اللواء.

ـ أهلًا معالي الوزير.

ـ يا لواء نجيب، إن فريقًا من الضباط يتجمعون الآن للقيام بانقلاب، ومعظمهم من سلاح المشاة الذي أنت قائده، وأنا أخشى من تدخل القوات البريطانية ويعود حادث عرابي والخديو توفيق مرة أخرى!

جاء صوت اللواء نجيب عريضًا دافئًا وبريئًا تمامًا وهو يقسم:

ـ أقسم بالله العظيم أنني لا أعرف شيئًا!

بعدها بساعة كانت سيارة تنتظر محمد نجيب لتقله إلى مبنى قيادة الجيش.

الصداقة تحفر أعمق ما يمكن أن تصل إليه في وجدانهما. شيء ما قوي من الامتنان يربط جمال بهذا الصديق، لعله تحديدًا نظرة عبد الحكيم التي تخبره وسط كل الزحام والسخام اللذين مرا بهما وعليهما، أنه يثق في أنه كبير جدًّا، وفلتة للغاية، وأنه الرجل الذي تنتظره مصر. قالها الآن دون أن ينبس إلا بتلك البسمة التي شاركت نظرته إليه وهو يجلس على كرسي رئيس الأركان، كما قالتها النظرة نفسها في تلك الشقة القديمة التي تكاد تخلو من العفش ومفروشة بورق الجرائد على مائدة فقيرة ودولاب يطقطق كلما فتحت درفة من درفتيه في مسكن حياتهما العازبة، يتسامران وقد امتلأت منفضة السجائر بعشرات من أعقاب السجائر، وحكيم يجلس ببنطلون البيجامة والفانلة الحمالات يخاطبه، كأنما جمال هذا هو مبعوث العناية الإلهية لمصر (له ثم لمصر).

طابور الذكريات الذي يمشي في عقله الآن منتظمًا ومنضبطًا ينادي عليه أنه لم يكن ليبدأ هذا الأمر كله بدون عبد الحكيم. ربما لم يكن ليرغب، وربما لم يكن ليقدر أن يفعلها أبدًا، كأن العالم خلا في تلك اللحظة غير المناسبة إطلاقًا من كل ما فيه، وعادا إلى «جبل الأولياء» في السودان، حيث الخلاء والخواء اللذان جاوراهما في الصحراء، منبوذين من قائدهما الذي رمى بهما في هذا المكان القصي لينتقم منهما، الحقيقة لينتقم من جمال الصموت ابن السكوت كما كان يسميه القائد المتغطرس. لكن حكيم حين عاد من إجازته وعلم بمنفى صاحبه، احتج واحتك بالقائد حتى ألحقه به، يقضيان ليلهما ونهارهما في كل شيء إلا العسكرية؛ فلا جيش هنا، ولا جنود، ولا معدات، ولا شيء إلا زواحف الصحراء، وكل أسباب قرحة المعدة من ضجر وغضب. تكلما كثيرًا، ربما يكون حكيم أيامها هو الوحيد الذي سمع جمال يبدأ كلامًا، فجمال كان لا يرد إلا حين كان حكيم يبادر.

نمت هذه العاطفة التي جرت في دمائهما، تتشكَّل محبتهما حينًا على هيئة صداقة، وحينًا على هيئة أُخوة، وفي كل الأحايين التصاق وتعلُّق مع السنوات التي مرت بهما وعليهما، صارا أقوى وأغمض من محاولة وصفهما. رأى جمال الدفء الوحيد في حياته يشعه حكيم. جمال يتيم الأم مرتين، مرة حين ماتت، ومرة حين تزوج أبوه بعنايات. جمال الذي تربى بعيدًا عن أبيه وإخوته وأمه أكثر كثيرًا مما كان بينهم. انتقل طفلًا مع أبيه موظف البريد المتواضع، لكن أغلب طفولته وصباه في مدن غير مدينة أبيه. والأب نفسه أورث صمته، وتكتمه، وعاطفته الملجومة، وصرامته الجافة، وصعيديته المغلق بابها على مشاعره، لابنه. فلا يظن قهقهة جمعتهما، ولا ذكرى خناقة، ولا ممازحة، ولا تنكيد أو تدليل تمشي ذاكرته بهما، ولا حتى فسحة مع إخوته ملأتها بهجة أو شقاوة أو مناكفة أو مناكدة وشغل عيال. وعندما ماتت الأم لم يشعر بأن أحدًا فكر في أن يرفق به، أو يحن عليه ويعامله كيتيم، ولا كصبي بِكر فقد أمه ليجد زوجة أبيه. لم تحاول أن تحبه. ولم يقدر إخوته (صاروا تسعة بعدما أنجب والده من عنايات) على أن يفهموا أن صمته حزن، أو أن اتزانه برود، ربما لأنهم كانوا أصغر منه عقلًا، وأشبع منه قلبًا. كان غريبًا حين عاش معظم أيامه في بيت عمه، وأكثر غربة في المدرسة الداخلية، وأكثر توحدًا وانعزالًا في كلية الحقوق التي مكث فيها نصف عام حتى التحق بالكلية الحربية، فقد كان الوحيد يبحث عن جماعة، والغريب عن رفقة، والضعيف عن قوة، والتائه عن هدف، والمغترب عن وطن. قضى قرابة سبعة أشهر فقط في الكلية الحربية وتخرَّج بعدها ضابطًا في العشرين من عمره، يحمل دبورتيه على كتافتيه، ويحمل عبد الحكيم عامر في قلبه، وقد أطلق على صديقه الجديد الذي أفرج عن معيلته من محبسها اسم «روبنسون كروزو»؛ بطل

القصة المتيم بها، فيما قرأه من قصص مكتبة الكلية. «روبنسون» المغامر المعتمد على نفسه، البحَّار الجسور غير العابئ بالمخاطر ولا المتحسب للعواقب. كان كل ما حلم به جمال أن يكون «روبنسون»، لكن الذي حقَّق بطولة حلمه و«روبنسونه» هو عبد الحكيم. كل ما يفكر فيه جمال مربوط بخيوط وخطوط، وكلما أقدم شيء على الخروج من قلبه عاد إلى الداخل، فاكتفى بصديقه حكيم الذي يرتع قلبه متوهجًا ومرحًا ونزقًا دون حساب ولا محاسب. حكيم هو الوحيد الذي سماه منذ اليوم الأول «جيمي». وقد تخفَّف جمال من هذا التجلُّد الذي جُبل عليه، مع حكيم فقط. وكان حكيم يُكمل شيئًا هائلًا فارغًا في حياة جيمي.

والد عبد الحكيم العمدة المرح الميسور الطلوق العطوف، البيت السارح في المشاعر المطلوقة، والكرم المغدق في رعونته، الخمسمائة فدان التي يملكها ولا تملكه، الدار الدوار التي تشغي بالضيوف وبالأهل وبأناس غرباء لا يعرفهم أصحاب البيت أصلًا، فالعلاقات متشابكة متشعبة ولا أحد يعرف فروعها من جذورها.

سهل جدًّا أن يتعرف حكيم على أحد، وأن يصادقه ويحادثه، كأنهما كانا معًا منذ سنين، لكن سنين طويلة يحتاج إليها جمال كي يفتح قلبه مواربًا لأحد، ثم يفسح الباب أكثر ليدخله هذا الأحد إن دخله. حتى الفترة التي ابتعدا فيها عن بعضهما في تنقلات عسكرية، وفصلت بينهما الأزمنة والأمكنة، بل تزوج كلٌّ منهما دون أن يكون لأحدهما رأي وشأن وحضور في الزيجة (هل كانا سيسمحان لصداقتهما أن تقرر في زيجة حكيم بزينب ابنة عمه، وجمال بتحية ابنة جيرانه)، لما أعادتهما الأزمنة والأمكنة إلى طريق واحد، استأنفا ما فات كأنه لم ينقطع، بل تزوج ابن خال تحية زوجة عبد الناصر بشقيقة عبد الحكيم، وكان الخاطبة عبد الناصر تقريبًا.

لكن ظلت الزوجتان زوجتين، والأطفال أطفالًا في بيتيهما، فلم يخرجوا من البيت ليلتحقوا بصداقتهما أو ينضموا إليها أو حتى ينحشروا فيها؛ ظهورات ولزومات المجاملات لكن ليس أبعد. ربما حكيم هو الوحيد من أصدقائه، إن كان له أصدقاء غير حكيم، هو من تخرج تحية لتحييه إن زاره في البيت، ويتبادل معها كلامًا لا حوارًا. دائرة جمال وحكيم ظلت لهما وحدهما، والعالم يدور خارجها.

كان جمال يحب في حكيم كل ما ليس فيه، وكان يحب في حكيم حبه له. ولاء حكيم عزيز، لكن حبه ملقى على رصيف الكلية، وفي قشلاقات الجيش، من أول خاله نفسه حيدر باشا قائد الجيش (القرابة تسمح له بأن يناديه بـ«خاله» وإن لم يكن شقيقًا لأمه، وها هو ينقلب عليه اليوم بضباط جنَّدهم حكيم في تنظيم ما كان ليكون إلا لأن حكيم فيه مع جمال). جمال كان يفكر، لكن حكيم كان يجنِّد، حتى إنه ذات مرة قال له مازحًا متباهيًا:

ـ ومن قال لك أنني لم أجنِّد خالي؟

لم يخالج حكيم الشك في نجاح الخطة، رغم أن جمال وحده هو من تحمَّل عبء القرار، قال غدًا يعني غدًا، لا اجتمع ليحصل على تصويت، ولا أخبر بقية اللجنة التأسيسية للتنظيم، بل صلاح وجمال سالم كانا في العريش، وأنور السادات كان في رفح، وقد فاجأ من بقي من التسعة بأننا سنتحرك غدًا، حتى محمد نجيب الذي اختاره قائدًا للحركة لم يشرح له ماذا سيفعل ليتحرك، بل لم يبلغه إلا قبلها بيوم، حتى إنه أجَّل الموعد ليوم تالٍ دون أن يسأل أي واحد فيهم لماذا! رغم أن السبب الذي قدَّمه كان هشًّا ويستحق ذلك الاستفهام بقوة؛ قال كي أطمئن على جاهزية كل وحدة للقيام بدورها في الخطة، بينما لم يكن أي جديد منتظرًا، ولا أي قديم مفاجئًا، لكنهم تواطأوا على الصمت، لأنهم يعرفون أن جمال

يعرف أكثر، ولأنهم رأوه خلال ثلاثة أيام سابقة لم ينم لحظة، ولم يهدأ دقيقة، ولم يكف عن الاجتماعات واللقاءات والتدبيرات معهم كضباط التنظيم، ومع غيرهم من غير التنظيم، ومن غير الجيش، بل ومن غير مصر أصلًا، فعليهم أن يصمتوا عن غيرهم!

سأله خالد محيي الدين فقط:

ـ لماذا لا نبلغ زملاءنا من ضباط الفرسان جمال منصور ومحسن عبد الخالق؟

فرد جمال قاطعًا:

ـ دعهما في إجازتهما في الإسكندرية، فهما إن حضرا فلن يكفَّا عن إزعاجي بالأسئلة عن تفاصيل الخطة، وبدائلها، وأسباب كل تفصيلة وأهدافها، وتدابير كل خطوة، وأنا ليس لديَّ إجابة ولا طاقة لهذا الرغي الفارغ!

نعم، كان يعتبره رغيًا فارغًا، فالذي بلغه عن طريق الصحفي أحمد أبو الفتح وهو يلح بتأكيدات معلوماته على شقيق زوجته البكباشي ثروت عكاشة، كان قاطعًا:

ـ الملك عرف بخبر التنظيم والحركة، بل وزير الحربية الجديد يملك قائمة بأسماء ثلاثة عشر ضابطًا للقبض عليهم لإجهاض انقلاب يعدونه!

لم يكن لدى عبد الناصر حجم رأس دبوس من شك أن اسمه هو شخصيًّا منهم، بل مشكلته ما هو ترتيب اسمه في هذه القائمة. شيء ما بداخله لم يكن يقبل أن يكون إلا الأول، حتى في قائمة اعتقال أو قتل! ثم من هو هذا وزير الحربية الذي سيحلف اليمين صباح اليوم التالي؟ إنه حسين عامر!

لا يزال حتى تلك اللحظة، وهو يجلس يتابع تحركات قوات التنظيم وهي تسيطر على معسكرات ومقرات الأسلحة والكتائب، تسري فيه رعشة الذكرى ورعدة الموقف، حين كان يقبع في المقعد المجاور في السيارة التي يقودها حسن إبراهيم، ويجلس في الخلف كمال الدين رفعت وحسن التهامي، وكلهم ممسكون بمسدساتهم (التهامي كانت معه بندقية)، تحت أغصان شجرة كثيفة في ذلك الشارع الهادئ الذي تكاد تسمع فيه أصوات ضحك أو زعيق أو خبط أطباق وحركة أقدام داخل تلك الفيلات والقصور الصغيرة المنتظمة في صفين على جانبي الشارع الذي تضيئه الأنوار الملقاة من الشبابيك والشرفات، على أسفلت يكاد يقتله الانتظار. يتربصون باللواء حسين عامر؛ هذا البغيض، قائد حرس الحدود، الذي يريد الملك أن يضعه في مجلس إدارة نادي الضباط رغمًا عنهم. يخدش فوزهم ويعطل نفوذهم، هذا رجل فاروق المدلل في الجيش، ولا بد من إزاحته، وهم هنا لاغتياله. صحيح أنه اتخذ القرار، لكنه اتخذه وحده بلا اجتماع ولا تصويت ولا حتى تخطيط. طلب من ثلاثتهم أن يشاركوا معه. ليست المحاولة الأولى للاغتيال التي يقدمون عليها، لكنه لم يكن معهم في أي مرة سابقة، هذه المرة عبد الناصر بنفسه في فريق الاغتيال، صاحب القرار، وسوف ينفذه بيده، لولا أن حسن التهامي الضابط المندفع غريب الأطوار تحدث بحماس مجذوب في ميدان سيدنا الحسين أنه هو الذي سيكون أول من ينفذ:

ـ دعوا لي وحدي هذا الرجل!

كان جمال أول من نزل الآن من السيارة لينتقل إلى الرصيف المقابل، حيث وصلت للتوِّ سيارة حسين عامر، واقتربت ببطء من الوقوف أمام فيلته. هبط كمال رفعت من ناحية، والتهامي من ناحية أخرى، بينما بدأوا جميعًا

إطلاق الرصاص، حين لمست قدما حسين عامر الأرض انكشف جسده أمام ناحية حسن التهامي تمامًا، وكان قد شهر بندقيته الآلية تجاه اللواء عامر، وضغط على الزناد بزخات الرصاص التي دوت بفرقعات حوَّلت هدوء الشارع لهبًا من صخب، لكن اللواء حسين عامر ارتد مرتجفًا بظهره وقرفص ساقيه ورمى نفسه قفزًا داخل السيارة، في حركة سريعة ورشيقة لا تليق بسنه وجسمه، ربما تتناسب مع أدرينالينه وإحساسه بهول الخطر. لم يفقده الرصاص المتتالي رشده ولا بداهته، فقد ترك باب السيارة مفتوحًا يحميه من رصاص حسن التهامي الذي كان يضرب الآن وحده بقوة وقسوة، يتقدم ببندقيته وراء رصاصه حتى فرغت منه الذخيرة. كان حسن إبراهيم ينادي التهامي بالعودة، وكان كمال رفعت قد عاد وركب السيارة وثبًا، وكان جمال قد تصلبت عيناه عند سيارة حسين عامر، وتحركت ساقاه نحو سيارة المجموعة. وتأخر التهامي، وحين وصل إلى باب السيارة المتحركة كان يرفع بندقيته كأنما يستعرضها في رقصة شجاعة وفخر.

عندما رجع جمال ليلتها إلى بيته كان أصفر الوجه، شاحب البشرة، مسحوب الدم من عروقه، والصلابة من عظامه. خشيت عليه زوجته تحية من مكروه أو مكروب، لكنه بنظراته الآمرة بالصمت والابتعاد نجح في أن تكف عنه عطف أسئلتها. لم ينم. قضى ليله ممددًا على شوك ملاءته حتى شفق الصبح، ثم هرع ليعرف صدى ما جرى، فاكتشف أن اللواء لم يُصب بخدش، وأنه نجا، وكانت خسائره الوحيدة من بطل الرماية حسن التهامي (نعم لم يكف في السيارة عن إعلان حصوله على ميداليات وأوسمة لبطولاته في الرماية) هي كرمشة بذلته، ومزق في كُم قميصه، وسقوط أزراره الذهبية، بينما الذي مات قتيلًا هو السائق المسكين للسيد اللواء.

كانت العملية فاشلة بامتياز، فشلًا من المفترض أن يُدرِّسه لطلبته في

كلية أركان الحرب، وأنبه زملاؤه وعاتبوه ولاموه، وزوَّدها عبد اللطيف البغدادي وهو يعدِّد خطورة إقدامك يا جمال على عملية الاغتيال بقرارك وحدك، وتنفيذه بنفسك، فلعلك كنت ستنكشف ويُقبض عليك، فيضيع جهد التنظيم كله ونرتمي جميعًا وراءك في السجون. جرحته النظرات المحدجة، ووخز الكلمات الغليظة، فطرح التصويت على قيادته للتنظيم الآن وحالًا وفورًا. كفت الجعجعة وبقي الطحن، فقد حصل على إجماع الأصوات الحاضرة فهدأ، بل حتى نسي رعدته التي لم تفارقه ليالي.

ها هو صبح الثالث والعشرين من يوليو سيطل، ولم يأتِ عامر وزيرًا للحربية فيطير رقبته وأعناقهم معه، لكنهم جميعًا منذ ثلاثة أيام فقط من هذه الليلة لم تكن لديهم أي مشكلة في أن يقرروا تنفيذ ليلة المذابح الكبرى، شيء شبيه بليلة السكاكين الطويلة التي مكنت النازيين من تمكين نازيتهم. خرجت الفكرة من أحدهم أو منهم جميعًا في لحظة واحدة، بمجرد أن أدركوا تسرب سرهم مع أسمائهم وتنظيمهم إلى حسين عامر نفسه الذي يكاد يطارده في أحلامه.

ـ التنظيم غير مؤهل، ولا مجهز، لانقلاب بالعدد المحدود من أعضائه وقطاعات الجيش التي لم يخترقها كلها، هل ممكن نعمل انقلاب بتسعين أو تمانين ضابط؟

ـ ما الحل؟ نتحرك أو ننسجن، يبقى نتحرك، حتى لو اتسجنا يبقى اسمنا عملنا حاجة ولم يأخذونا من بيوتنا!

ـ طيب الخطة البديلة؟

عادت الخطة القديمة لتصبح الخطة البديلة، تكونت مع ساعات الاجتماعات الطويلة، تناثرت مع ثرثرات القشلاقات وهمسات الجلسات المغموسة بدخان السجائر وتنهدات الغيظ المكتوم.

ـ قائمة بمائة من رجال السياسة والأحزاب والقصر، نغتالهم جميعًا في ليلة واحدة. نعم، الليلة.

ـ لا، لتكن غدًا، كي نكون أكثر تجهزًا.

لم تجد الخطة رفضًا لأنها لم تصادف نقاشًا، فكأنه الوحي نزل عليهم في كهف الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى. انتهوا من تحديد الأسماء وموعد التنفيذ بعد أربع وعشرين ساعة، «حتى يتزلزل القصر بمصر، ونستطيع تطهير البلد من فساده وفساقه». لم يملكوا وقتًا كي يضيعوه ويحاولوا إقناع آخرين بالمشاركة في ليلة الاغتيالات الكبرى، فعزموا على أن يقوموا بأنفسهم بعمليات الاغتيالات. حددوا نصيب كل واحد منهم من المغتالين، والأسلحة المطلوبة، بل جمعوا العناوين والأماكن، ما يقتضي كذلك السفر إلى الإسكندرية حيث مقر الحكومة وتواجدها الصيفي. وكان مصطفى النحاس زعيم الوفد، وفؤاد سراج الدين سكرتير الوفد، خارج مصر، فربما ظلًّا خارج القائمة.

لم يستعد جمال ليلة حسين عامر، ولا رعدتها، ولا رعشتها، ولا اضطرابه، ولا ندمه، فها هو مستعد لتكرارها، فلا رعدة تمنع، ولا ندم يعطل. لقد كانت مصر على المحك، فلا وقت للمشاعر الهشة في اللحظات الصلبة.

ـ لكن هناك مشكلة كبيرة!

ـ خير؟

ـ عمليات الاغتيالات تتطلب سيارات لتنفيذها، ونحن التسعة لا نملك إلا ثلاث سيارات فقط!

إذن كان واجبًا الاستعانة بغيرهم من التنظيم وخارجه.

ـ طيب ما إذا كنا سنستعين بغيرنا، لو نجحنا في قتلهم فسيكون هناك فراغ كبير في البلد، وساعتها لا أحد ضامن من سيملأه وينهي الفوضى!

ـ فلماذا لا نملأ نحن الفراغ؟

ـ إذن هو الانقلاب أفضل، ولعله أوفر حظًّا، وأريح تجنيدًا، وأبخس كلفة، وأقل دمًا.

لهذا كانت الليلة، الانقلاب أسهل كثيرًا من الاغتيال، فعلوها وها هم الآن في مكتب رئيس أركان الجيش يمدون سيقانهم على سجادته العجمية.

قال جمال لعبد الحكيم:

ـ لتتصل باللواء نجيب نهنئه، ونرسل من يحضره للقيادة.

كان يقوم ساعتها من على مقعد صدارة القاعة، حيث كرسي رئيس الأركان، وهو يوقن من الأخبار التي تنالت إليه من جميع الأسلحة، أن التنظيم سيطر على القيادة، وأن الكلية الحربية قد اتسعت للعديد من الرتب المعتقلة. وتيقن من تدفق هؤلاء الضباط الذين وفدوا وملأوا مبنى قيادة الجيش أنهم قد نجحوا. أطرق برأسه لنفسه وقد أدرك أن كل خطة مهما كانت بارعة أو ساذجة تحتاج كي تنجح إلى الحظ والصدفة والغباء.

وكلها كانت في خدمته الليلة.

٤

ظل محمد نجيب يردد هذه الآية الكريمة أربعمائة وخمسين مرة طوال هذه الساعات، يرددها متمتمًا، ومرتلًا، ومتبتلًا، وهامسًا، وصائحًا، ومكملًا لها، ومقتطعًا منها، وعائدًا إليها، ولعله رددها خمسمائة مرة، أو ربما أخطأ في العد والتكرار فإذا به يعود ويرددها، فقد يبدد دويها في أذنيه دبيب القلق، والتوجس الذي يوخز جلده فيكاد ينزعه عن لحمه. يصمت كل لحظة عن التمتمة والهمهمة، ويحدق في جهاز التلفون الأسود، يستوثق أنه لم يسمع رنينه، ثم يعاود قراءة الآية في سره وفي جهره، وعيناه مربوطتان بالتلفون كأنما تعلقت به روحه. كان من أول النهار على قلق، كأن الريح تحته وفوقه وحوله. لم يتخذ حذرًا، فطلب من سائق سيارته الجيب أن يذهب به إلى بيت جمال عبد الناصر في القبة، قال له شارع والي خلف محطة بنزين كوبري القبة، بيت فيه محل مكوجي، ثم أضاف أنها شقة في الدور الأول. طبعًا لن يصعد السائق بسيارته إلى الدور الأول، ولن يهمه أنها الشقة التي على يسار السلم، لكن السائق غفر للواء نجيب خوتة دماغه بتفاصيل لا تنفعه، حيث لاحظ أن سيادته اليوم ليس على طبيعته، وشيئًا ما يدور ويلف في رأسه تحت نسر كابه.

نجيب لم يجد جمال في شقته. تجاهل أن جمال عبد الناصر سينزعج إن حضر إليه اللواء نجيب في بيته بالسيارة العسكرية، وهو اللواء المراقب والمستهدف من عيون الملك ورجاله، لكن نجيب لم يقدر على الصبر احتمالًا، كان يريد أن يعرف هل ما اتفق معه عليه قيد التنفيذ، فينتظر ويترقب ويحلم، أم يسكن ويهدأ ويحبط. فقد منحه جمال عبد الناصر هذه اللحظة التي كان ينتظرها، لحظة أن يحرر نفسه وبلده من فسدة الجيش الذين حاصروه، ونكلوا به، واستصغروا شأنه، وتعابثوا معه، وتخابثوا عليه، وتآمروا حوله، فأطاحوا به من رئاسة سلاح حرس الحدود، ومنحوها للمهرِّب الكبير حسين عامر، ذلك اللواء الأفاق الذي كسب كل شيء عبر زجاجات الشمبانيا وصناديق الشوكولاتة، وتقاسم أرباح تهريب المخدرات مع خادم الملك وسائقه، فتمكن من إزاحة نجيب من رئاسة سلاح الحدود، بل صمم الملك على أن يعينه في مجلس إدارة نادي الضباط، فلما فشل ها هو يحل مجلس إدارة النادي بعد ستة أشهر من انتخاب نجيب رئيسًا له، وكأنه بات علَم الضباط الخافق والسامق، يكسر صاريته ملك يعبث به سائقه، ويعبث بسائقه لواء أدنى من أن يكون جاويشًا!

يتحسس نجيب ندبات جروحه في حرب فلسطين، لا هي واحدة ولا اثنتان، بل سبع إصابات من الرأس حتى القدم، من انفجار لغم، إلى تلقي رصاص. الجلد الملموم والنتوء البارز بجوار القلب وعند الصدر وقرابة الكتف وتحت الإبط. فمن عامر هذا ليحل محله؟! بل الأخبار تترى أنه سيكون وزيرًا للحربية! لكن لو نجح رجاله (يخبرونه أنهم أولاده) هذه الليلة فكل شيء سيتغير.

غيَّر وجهته، وأمر السائق بالتوجه إلى مبنى كلية الأركان، وصعد

طابقًا، يحييه الضباط، ويصافحه المحبون، فترتفع فرحته من قلبه حتى عنقه، فيشرئب حيث يحمد الله على محبة الجيش. دخل على عبد الناصر المفاجأ، فوجد معه عبد الحكيم المتفاجئ.

لا يستطيع أن يتذكر، منذ أكثر من عام حين عرض عليه جمال قيادة تنظيم الضباط الأحرار، أنه رأى جمال لحظة دون حكيم، هما كالتوأم بالنسبة إليه. صحيح هو يحب حكيم أكثر. لقد لاحظ أصلًا حين مجيء سيرة جمال وحكيم أو الوجود في محيط أو اجتماع أو احتفال، أن الضباط جميعًا يحبون حكيم أكثر، لكنهم يُسلمون عقولهم لجمال أسرع، ولكن جمال الهادئ حتى البرود يبدو وقد أودع قلبه عند حكيم. أدرك نجيب هذه الحقيقة عندما علم أن عبد الحكيم هو من أطلق اسمه في هواء جمال: لقد وجدت لك الكنز الذي تبحث عنه. ابتسم نجيب وهو يكلم نفسه: كان يقصدني أنا بالكنز، عمل عبد الحكيم عامر أركان حرب للوائي فترة من زمن، فبلغه ما بلغ الناس جميعًا (والحمد لله) من عزتي ونزاهتي، فقال مقولته للبكباشي جمال عبد الناصر الذي لم أكن أعرفه جيدًا، بل لم أعرفه أصلًا، ومنذ عرفته كان الضابط الذي يجلس في الصف الأول واضعًا كبرياءه عند حافة أنفه، وها هو ينظر إليَّ الآن وقد دخلت عليه مكتبه ممسكًا بعصاي ومتماسكًا بأعصابي، أسأله بنظراتي.

كان جمال متفهمًا قلق هذا اللواء الطيب الذي جاء به إلى الواجهة وهو لا يملك من أمره إلا طيبته وسُمعته النقية. لم يرَ فيه جمال إلا سنه التي شارفت الحادية والخمسين، بينما هم جميعًا في مطلع الثلاثينيات من العمر، وثقل رتبته على كتافتيه، فهو اللواء الوحيد الذي قبِل أن ينضم إلى التنظيم، بل أن يقال إنه قائده، وأن يجند جمال الرتب الأعلى على حسه وباسمه. فلما دخل عليه، صباح الثاني والعشرين من يوليو، في

مكتبه في كلية أركان الحرب، تفهَّم حيرة الرجل وارتباكه وأرقه. ولما عرف أنه مر عليه في بيته أولًا كتم غيظه من خطأ أمني فادح ما كان ليغفره إلا اليوم، فلا مفر من غفرانه. ثم لا شك لديه الآن أن اللعب صار على المكشوف، فالتنظيم كله عبارة عن قائمة أسماء على مكتب أحدهم الآن، سواء الملك، أو اللواء حسين عامر (الذي يأبى أن يموت)، أو مرتضى المراغي وزير الداخلية، أو إبراهيم إمام رئيس القلم السياسي، وربما حتى حسن عبد الوهاب مدير البوليس الحربي. إلى أين ستتحرك الورقة؟ وهل الليلة فرصة أخيرة أم أنها الليلة الأخيرة؟ أسئلة تترنح إجاباتها بين عقارب الساعة!

طمأن نجيب وهو يتعشم في ابتسامة وادعة من حكيم يحتاج إليها لطمأنة نجيب أكثر، فحصل عليها دون أن يطلبها. ابتسم حكيم، ومرر كفيه على كتف وظهر اللواء نجيب، وعانق ذراعه بذراعه، ولم يحتج بعدها أن يقول له، لكنه قال:

ـ كل شيء في مكانه وموعده.

ربما من فرط الحماس، أو الإفراط في القلق، طلب نجيب أن يشارك في التحرك بنفسه، فقال جمال حازمًا وهو يدور بحدقتي عينيه في الغرفة ووراء الشباك، ويطرق سمعه إلى دقات الأحذية على خشب الممر:

ـ لا، أنت مراقب، ولو قُبض عليك لضاع كل شيء!

ثم كأنه أنهى الحديث قبل أن يحدث:

ـ كن في بيتك يا سيادة اللواء بجوار التلفون حتى نبلغك بالاستيلاء على مبنى القيادة!

ها هو الليل كله يجلس أمام التلفون، وبجواره، ويضعه على حجره. صرخ التلفون برنينه أكثر من مرة فنزع قلبه من مكمنه. واحدة من مرتضى

المراغي يسأله عن حقيقة ما سمع، وهو وزير الداخلية، من تحرك ضباط لانقلاب، فأقسم له بالله غير حانث أنه لا يعرف شيئًا. إنه حنث حلال، فهو في سبيل الوطن. ثم مكالمة أخرى من رئيس الوزراء نجيب الهلالي يحمل نفس السؤال، لكنه بدأه وتوسطه بكلمات أرق وأحن:

ـ أنا كنت أستاذك في كلية الحقوق يا نجيب، والمسألة لها عواقب خطيرة، فأنا أخشى من تهور أولادك!

هل سبعة عشر عامًا أو أقل قليلًا تكفي ليكون جمال عبد الناصر ولدي، ورفاق سنه وجيله أولادي؟ ابني الأكبر يلامس السابعة عشرة من عمره أصلًا! لكن لا بأس.

ـ أؤكد لك يا معالي دولة الرئيس أنه لا علم لي بشيء. وأنا أرد على مكالمتك من بيتي!

بيتي، نعم، بيت صغير في الحلمية، لا يزال باجور الجاز في المطبخ لا البوتاجاز، ونشتري الثلج لنحفظ في الناملية الطعام ونسقع اللمونادة، فلا ثلاجة مما توجد في بيوت الضباط الكبار، بل الصغار. بيتي بعفشه المتواضع والذي لا يمكن مقارنته بما لدى حسين عامر، قد يكون ثمن ثريا من ثريات قصره بقيمة ما أملكه كله أو أكثر، فقد سمعت أنها مطلية ذهبًا. إن البلد يحتاج إلى لواء مثلي يرفع لواءه، فلن نطهر بلدنا من الفساد إلا لو كنا طاهرين نزهاء نظيفي اليد. فأستاذي في كلية الحقوق نجيب باشا الهلالي الذي رفع شعار التطهير، وبدا أنه بدأ حربًا عوانًا على الفساد في الحكومة والقصر، أُقيل من منصبه بعد عدة أسابيع بفعل رشوة دفعها المليونير عبود باشا ليتخلص من مطالبات حكومة الهلالي له بالضرائب! كيف يقبل الهلالي أن يعود رئيسًا للحكومة بعد إقالته بأسابيع؟! وكيف يتأبى أن يتحرك الجيش ليطهر بنفسه؟! وأي عواقب هذه التي يحذرني منها

وهو الذي عطل البرلمان وحل مجلس النواب والشيوخ ليحكم الملك بنفسه لنفسه عبر طرابيش حكومته؟!

كان محمد نجيب يغلي محمومًا عقب كل مكالمة، إلا تلك التي جاءته من زوجة شقيقه اللواء علي نجيب رئيس منطقة القاهرة:

ـ علي غائب، ولا أجده يا سيادة اللواء! هل تعرف أين هو؟ أنا قلقة عليه!

ـ وما الداعي للقلق؟

ـ لا قالي إنه سيتأخر، ولا من عادته إنه لا يُكلِّمني لو خرج إلى مهمة!

ـ وهل تظنين أنه في مهمة خاصة؟

ـ قلت أسألك، فأنت اللواء الذي تعرف ماذا يفعل بقية اللواءات!

ـ وأعرف منين وأنا قاعد في البيت؟!

ـ خلاص، كلم أي لواء من زملائك، شوف أين أخوك!

ـ علي أخي رئيس منطقة القاهرة العسكرية، تقريبًا قائد العاصمة العسكري، ولا خوف عليه، اهدئي!

لعلها هدأت بعد المكالمة، لكنه هو من قلق على أخيه وعلى نفسه. لو كان جمال عبد الناصر تحرك، فربما يكون قد اعتقل شقيقه. ولو كان فشل، فربما يكون شقيقه من اعتقل جمال ورفاقه. هل سيفاجأ بأخيه داخلًا عليه ليعتقله بعد قليل؟

كل شيء عاد للحظة الأولى في هذه الليلة، حين اتصل به شقيقه علي نجيب شخصيًّا ليطمئن أنه ليس ضمن من سمع الليلة عن حركتهم من الضباط:

ـ الحمد لله يا محمد، كنت خايف تكون اتجننت ومشيت وراء هؤلاء العيال!

ـ أي عيال؟!

ـ لا، لا تقلق، واضح إنها كلها شائعات، كانوا يقولون إن ضباطًا تحركوا من معسكراتهم، لكنْ واضح إنه كلام فارغ.

عاد نجيب إلى الآية الكريمة، يهز رأسه وصدره للأمام، وعاف كل ما حاولت عائشة زوجته، بنت هذا العسكري الطيب محمد لبيب الذي أحبه فتزوج ابنته بعد أن طلَّق الأولى بأربعين يومًا، وعوضه الله عن زوجة زنانة ملحاحة بزوجة طيبة تشاركه قلق الليلة بوضع أكواب ينسون وشاي وقرفة بجواره دون أن تسأله عن غرابة حاله، فهي لا تسأل أبدًا، ولا هو يسألها أصلًا، هي صموتة ومحتملة وساكنة بيتها. أما أولاده الثلاثة فليسوا صغارًا لدرجة ألا ينتبهوا غافلين، وهم كبار لدرجة ألا يسألوا متطفلين.

يا ترى لو فشل عبد الناصر ماذا سيفعل هؤلاء الصبية وأكبرهم مرتهق من غيري؟ لو لم أعش فليبقَ لهم معاشي.

ارتفع صوته بالآية، وهو يتذكر أنها رؤية الرجل التقي أحمد المدثر السوداني الجميل، رفقة أيام السودان الرائعة، حيث أخبره المدثر أنه صلى العصر في مقام سيدنا الحسين، ثم غفا ونام، فجاءته الرؤيا في المنام في ظلال المقام وعند الضريح، حيث انبثق شعاع من نور مضيء، وتحول الشعاع يدًا، وامتدت اليد ممسكة ورقة، وخرج من الورقة صوت يقول له أعطِ هذه الورقة لمحمد نجيب ليقرأها ولينفذ ما بها.

ـ وعندما فتحتُ الورقة وجدت آية قرآنية يا محمد، وعرفت أنك يجب أن تقرأها أربعمائة وخمسين مرة.

كانت الآية هي ما يرددها منذ ساعات طوال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

لقد جمعوا له كثيرًا، ولعله خشيهم أو لم يخشهم، لكن في كل الأحوال

والأهوال زادوه إيمانًا، لكنه الآن وفي تلك الساعة في هذه الليلة وهو يتمتم بالآية، هو من يجمع الناس، يجمع الناس لهم، ويجمع الناس لكم، وها هم قد اجتمعوا.

زن رنين التلفون، هذه المرة يرن معه قلبه. رفع السماعة فجاء صوت الصاغ جمال حماد:

ـ مبروك يا أفندم. كله تمام.

٥

تأخر جمال عبد الناصر إلى الوراء قليلًا، ليفسح للواء محمد نجيب أمتارًا للعبور نحو مقعد القائد العام. فلما جلس نجيب جر جمال مقعدًا خشبيًّا أصغر، ووضعه على يمين نجيب، وجلس.

كان حكيم قد سبقه إلى نجيب فعانقه ودخل به إلى الغرفة، وحدج بنظراته عددًا من الضباط تحلقوا حول نجيب ووصلوا معه حتى منتصف الغرفة يحاوطونه بالتحيات والتبريكات، فالتم هذا الجمع بسرعة إلى حلقة أصغر، تفككت بإشارة حكيم المبتسمة لهم تأمرهم أن يخرجوا، ثم ألقى أوامره العسكرية مطلية بالدعابة:

ـ يلَّا يا رجالة، ورانا انقلاب بنخلصه!

كان نجيب قد أسرع دون أن يملك لنفسه زمامًا، فركب سيارته «الأوبل» القديمة، وقادها سائقه الخاص يسوق به وحده إلى مبنى القيادة، وقد رفض أن يحضر له قولًا عسكريًّا من المركبات وثلاث عربات مدرعة يقودها يوزباشي بالجنود كما أخبره جمال حماد. لم يكن سعيًا للتواضع والتمنع حين رفض انتظار الحراسة والموكب القادم، بل كانت رغبته في الوجود في قلب الحدث، وأن يفرغ شحنات قلقه التي كادت تنفجر

من طول الانتظار، هما دافعه لأن يبادر ببعض المغامرة للركوب وحيدًا مع سائقه في سيارته المدنية، ويسابق ماضيه العثر ليلحق بما انتظره ولم يتوقعه قَطُّ. لكنه حين أوشك على الوصول إلى مبنى القيادة وجد جمعًا من ضباط وجنود، استقبلوه بحفاوة ولهفة وسرعة، ولم يعرف من وجوههم إلا إسماعيل فريد الذي علق وجهه في عقله، وتعلَّق بقلبه، يكاد يحملونه إلى سيارة جيب عسكرية كبيرة ركبها في الخلف، بينما وقف من تمكَّن منهم على حوافها وحواجزها، ولحقوا بسياراتهم خلفه، وبصفوفهم أمامه، فدخل موكبه ساحة المبنى.

حين صعد إلى مقر القيادة، ودخل حيث غرفة القائد العام، قابله عبد الحكيم عامر، فانصرفت عنه الثلة المصاحبة بابتسامة حكيم الذي أمرهم وهو يعانقه بالرحيل فرحلوا. ملأ الغرفة وجه عبد الناصر، وقد تبادلا معًا ابتسامة راضية وجادة وهو يمضي تجاهه، بينما كان يوسف صديق يتحدث متحمسًا، بوجهٍ محمر، لمَّعه العرق الممسوح، بينما القائمقام أحمد شوقي يسمع شيئًا من عبد اللطيف البغدادي، أما عبد المنعم أمين وحسن إبراهيم فقد اقتربا بمقعديهما نحو المكتب، بينما وقف خلف عبد الناصر ملتصقًا بظهره وأذنه قائد الجناح علي صبري، يتابعه بتقرير ما.

كان المشهد بين الابتهاج والضباب أمام عيني نجيب، وكان وجوده في مبنى القيادة نجاحًا سريعًا وخطرًا داهمًا في ذات الوقت. يجهل تفاصيل الخطة التي جاءت به إلى هنا، والخطة التي ستخرج به من هنا، لكنه ضحك بغتة طاردًا دخانًا من غليونه، وهو يمسك بدفتر بُني مجلد بقطعة من الجوخ، موضوع أمامه على المكتب، فلمح أنور السادات يستلقي بجسده الطويل على الأريكة الكبيرة الوحيدة في الغرفة، وراح في غفوة

نعاس كأن الدنيا لا تنقلب بجوار الوسادة التي يسند عليها رأسه. هذا النائم أكثر من طمأنه في هذه اللحظة.

بدأ زكريا يعطي تمام الحركة للجميع، ونظراته تتوزع بين نجيب وجمال، فيما تكاد تستأذن نظرات وتلميحات وحركات وإيماءات نجيب، جمال عبد الناصر، قبل أن يعطي إشارة رضا أو موافقة أو اتفاق:

ـ سلاح الفرسان، خالد محيي الدين وثروت عكاشة، أغلقوا منطقة العباسية. المدفعية عزلت ألماظة والهايكستب. كل الطرق لمبنى القيادة هنا تمت السيطرة عليها تمامًا. القوات نزلت للإذاعة ومحطات التقوية الإذاعية. حاصرنا قصر عابدين واستلمت فرقة منا حراسته. الكردونات والكمائن بدأت في المناطق الرئيسية.

كان أكثر ما يدعو إلى القلق قد بدأ؛ لم تكن الحركة قد أحكمت سيطرتها على كل الأسلحة في القاهرة، ولم ينضم إليها الجيش حتى هذه الساعة، ولا تزال الإسكندرية بعيدة عنهم بسلاح البحرية وخفر السواحل وقوات الحرس الملكي، وكانت الصفحات الست الفلوسكاب التي كتبها ظهر اليوم عبد الحكيم عامر بخطه، وعليها بعض تعديلات بخط زكريا محيي الدين، وأخرى أصغر وأقل بخط عبد الناصر، لم تتم كلها. العشرة الذين كانوا في شقة خالد محيي الدين منهم ستة فقط كانوا من أعضاء لجنة القيادة، يعرفون أن كل ما فعلوه حتى الآن في مهب الريح لو هبت، لقد أنقذهم القائمقام أحمد شوقي، وسد ثغرة فراغ هائل بانضمامه إلى التنظيم والحركة صباح اليوم فقط. كانت مفاجأة أخذتهم إلى منطقة أخرى من النجاح، فها هو قائد الكتيبة ١٣ مشاة وقائد حامية القاهرة كلها، قلب الانقلاب نفسه، ينضم إلى التنظيم بمجرد ما فاتحه عبد الناصر وحكيم، وهما الأقل رتبة والأبعد معرفة عنه. بل إن صلاح نصر قد ألجمته الدهشة

عندما رأى قائده يدخل عليهم شقة خالد محيي الدين لينضم إلى الاجتماع الذي يحدد تحركاتهم في خطة انقلاب الليل. ولم تكن هناك فرصة للتعاتب على كتمان سره على قائده، فوقت العتاب سيكون طويلًا، إما بعد النجاح في أي مكتب، وإما على غداء أو عشاء أو في فناء سجن حربي معد أكيد لمثل هذه الجلسات!

لكن أحمد شوقي غمره فيضان مفاجآت أخرى بعدما نزل من الاجتماع ليذهب إلى بيته ليتجهز، فقد ظل ضابطان معه في السيارة، لم يبرحاه للحظة، حتى عندما صعد ليرتدي ثيابه العسكرية في منزله. جمال وحكيم ولعله صلاح نصر لم يثقوا فيه وهم يكلفونه بالخطة، وظلوا على هذا الشك الذي تفهَّمه، حتى إنه صمم وحلف عليهم بأيمانات المسلمين جميعًا على أن يصعد أحدهم معه إلى المنزل وليبدل ثيابه أمامه. كان هذا الشك يعول على أن أحمد طلعت حكمدار القاهرة هو ابن خالته، فهما معًا جيش وبوليس ابنا خالة، يديران عاصمة صاحب الجلالة، فطبيعي أن يلعب في قلوب هؤلاء الضباط ألف فأر، فهو يمكن أن يقضي عليهم جميعًا بمكالمة تلفون، أو حتى بالتفاتة منه بمسدسه ويعلن القبض عليهم، فهو قائدهم الأعلى. لكن أحمد شوقي فاجأهم بإيمانه السريع بالانقلاب، فقد ألقى القبض على ابن خالته حكمدار القاهرة بنفسه بعدها بساعات. اقتحم بقواته مقر حكمدارية الأمن وحاصرها، وتلقى مكالمة وزير الداخلية في مكتب ابن خالته، وأعلمه أنه لن يسمح للبوليس بالاحتكاك بالجيش ولا العكس، ثم أمر ابن خالته حكمدار العاصمة الهمام بوقف أي تحرك للبوليس في مواجهة قوات الجيش، وصار هو وحده المسؤول عن جيش وبوليس عاصمة صاحب الجلالة لهذه الليلة. كل هذا حدث قبيل ساعة من جلسة أحمد شوقي

الآن يتأمل راضيًا حلقة الضباط حول نجيب، بينما أنور السادات يصحو من غفوته مبتسمًا يعظم لنجيب بالسلام.

كان أحمد شوقي قد تلقى آخر نصيبه في هذا اليوم الطويل من المفاجآت، حيث كان يمر على سلاح الفرسان أمام مبنى قيادة الجيش، ليطمئن على استتباب النجاح للحركة، فوجد الصاغ ثروت عكاشة يندفع نحوه محييًا مرحبًا، وبأعلى صوته قال له:

ـ ابنك بطل يا سعادة القائمقام.

انفتقت كل غدد أحمد شوقي فرحًا لحظتها، فقد رأى ابنه الملازم أول ممدوح أحمد شوقي ضابطًا من الضباط الأحرار. وها هما الأب وولده مشتركان في انقلاب ليلي دون أن يدري كلٌّ منهما عن الآخر شيئًا.

لم يترك حضن ابنه إلا حين حكى له مطمئنًا أن مدير البوليس الحربي البكباشي حسن عبد الوهاب وصل بعدة وعدد رجاله وقواته إلى ساحة العباسية، لما وصلت أنباء تحرك قوات من الجيش، ولأن زكريا محيي الدين دفعته في الحربية، فقد قرر أن يواجهه ويصارحه بنفسه:

ـ نعم يا حسن، نحن نقوم بانقلاب، أنا عارف إن مهمتك الآن باعتبارك مدير البوليس الحربي تقبض علينا أو تشتبك معنا، لكن أنا أصارحك بحق الزمالة أننا لن نستسلم ولن نتراجع، وشوف إنت ما هو التصرف الأنسب!

كان حسن عبد الوهاب مبهوتًا وهو وسط عساكره وضباطه، بينما يرى كردونات ومصفحات زكريا وعساكره وضباطه: هل يستدعي بقية قواته ويشتبك ويجهض الانقلاب؟ هل ينضم إليهم منقلبًا ويعلن ولاءه ويدخل معهم إلى حيث اللواء نجيب القادم في الطريق، أم يسارع فيعتقل نجيب، وربما زكريا زميله نفسه؟ لما أخذته الحيرة وراحت

به وعادت، فعل ما رُفعت له القبعات ذهولًا؛ قرر أن يركب سيارته وقال لزكريا:

ـ أنا مروح بيتنا، وغدًا من ينتصر فيكم سأكون معه.

لما سمع نجيب هذه الواقعة يرويها أحمد شوقي، ويؤمن عليها برأسه زكريا محيي الدين، أدرك أن الشعاع الذي تحول إلى يد سلمت الورقة لأحمد المدثر في ضريح سيدنا الحسين هو سيدنا الحسين نفسه!

دخل جمال حماد عليهم، يمنع بظهره احتشاد ضباط كُثر تزاحموا للدخول. نظر إلى عبد الناصر ثم إلى نجيب، لكنه نادى عبد الحكيم عامر الذي خرج إليه وأغلق الباب، وقد تركهم صامتين لا تنطق فيهم إلا رؤوس أعواد ثقاب تصطك بقشرة الكبريت وتُشعل لهبًا لسجائرهم. عاد حكيم وأغلق الباب وراءه، وقال مبتسمًا:

ـ خلاص، القوات حاصرت مبنى الإذاعة!

لحظتها رن التلفون، ورن جرس فرح في قلوبهم جميعًا، حين وجدوا أن رئيس الحكومة على الخط الآخر، وفهموا من نجيب وهو يُجيب أن رئيس الحكومة يطلب تأجيل بيانهم في الإذاعة قليلًا.

أدركوا ساعتها أنهم سيطروا تمامًا على القاهرة، وأنهم أعلنوا عن إذاعة بيان للجيش، لكنهم لم يكونوا قد كتبوا فيه حرفًا حتى الآن!

أشار جمال عبد الناصر بإصبعه التي شقت دوائر دخان السجائر الذي عبأ الغرفة، كأن قنبلة دخان تحت مكتبه تركها لهم رئيس الأركان المعتقل، فاللواء نجيب لم يكف عن تدخين البايب (لم يكن يدخن في شقته، حيث كان يرى غيابًا للياقة والأدب أن يردد الآية القرآنية أربعمائة وخمسين مرة وأكثر، وفمه وحنجرته معبآن بالدخان)، وكل ضباط الغرفة تقريبًا يدخنون في وقت واحد، ولم يفكر أحدهم في إيقاف هذه الحمم

لوهلة، فما صدق جمال حماد الذي كان قد أشار له عبد الناصر بالاقتراب أن سمع جمال عبد الناصر يهمس في أذنه وهو يميل عليه فيستند بصدره على حافة المكتب:

ـ أنت ستكتب لنا البيان. أنت أديب وشاعر.

عندما تسمَّع يوسف صديق الهمس لم يفهم منه إلا كلمة «شاعر»، فظن أنه المقصود، فهو الشاعر الذي لا يكف شعره عن الصدح في مؤتمرات واجتماعات ومناسبات الضباط، بينما فهم السادات أن عبد الناصر يكلف حماد بكتابة البيان، ولم يشعر بأسى، وهو الذي عمل صحفيًّا وقت فصله من الجيش، وهو كاتب المقالات واليوميات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات وليس جمال حماد، ولكنه جاء متأخرًا في الثالثة صباحًا، ولم ينفذ شيئًا مما كان مكلفًا به في الخطة، فلا سيطر على مصلحة التلفونات بشارع الملكة نازلي، ولا منع الاتصالات بين قادة الجيش، ولا هو الآن في محطة بث الإذاعة بالمقطم، وهي كلها كانت مهامه المهمة في خطة لم يخطط فيها شيئًا ولم ينفذ منها شيئًا، فقد قضى الليلة كلها في براح السينما الصيفية مع زوجته جيهان يشاهدان الأفلام بالفشار واللب والحب، رغم عودته المرهقة من سيناء صباحًا إلا أنه صمم ليلًا أن يكافئ جيهان بنزهة تليق بزوجة منتظرة، فإذا بالسهرة السينمائية تمنعه من أن يلحق بموعد الحركة التي فاجأت الجميع، وحمد الله أن عبد الحكيم عامر كان يتمم على القوات حول مبنى القيادة فناداه كي ينقذه من الجنود الذين يمنعونه من الاقتراب والدخول إلى مبنى القيادة رغم أن معظمهم تعرفوا عليه، بل كانوا يحيونه بالبطل، فهو منذ محاكمته في قضية مقتل أمين عثمان وجه معروف بين شبيبة الجيش وشيبته، فالحمد لله كثيرًا على أنه هنا في قيادة مبنى القيادة، فليس مهمًّا من يكتب البيان أو من فينا الضابط الأديب

والأريب، وهنيئًا لجمال حماد بتكليف جمال عبد الناصر. ارتخت أعصاب السادات وجفونه حتى إنه غفا ونعس.

أضاف عبد الناصر لحماد، وهو يحول رأسه ناحية نجيب الذي كان يومئ بالموافقة سلفًا:

ـ هذا بيان مهم جدًّا، لأن الجيش كله والشعب معه سيسمعه، وهو أملنا الوحيد أن ينضم الجيش والشعب إلى حركتنا!

كان عبد الحكيم قد أدخل رأسه وصدره بينهما فوق المكتب، فلما انتهى جمال عبد الناصر من جملته أمسك بقبضة حماد بين قبضته، وجذبه للخروج معًا من الغرفة وسط الأكتاف التي زادت والمقاعد التي تعددت، ثم تراجع وعاد مرة أخرى إلى الغرفة وهو لا يزال ممسكًا بقبضته، والتقط دفترًا ورقيًّا من فوق المكتب، والتفت فاكتشف قلمًا في جيب جاكت حماد وآخر في جيب جاكتته فرضي وأكملا خروجهما، بينما شد لحظتها نجيب الدفتر البني وقلب في صفحاته، واستقرت عيناه مستغرقتين عند أسماء ضباط مكتوبة برتبها العسكرية في قائمة بخط يد، كانت ثمانية أسماء، همهم بها نجيب وتمتم، ثم انشغل بما حوله فطوى الدفتر سريعًا، ثم سرعان ما طوته ذاكرته.

في مواجهة الغرفة كانت قاعة المؤتمرات، دخل حكيم وحماد فوجداها فارغة، فانشرحا من المفاجأة، وأغلقاها من الداخل، وجلس كلاهما على المائدة الخشبية الفخمة. وضع عامر الأوراق أمامه متنهدًا، ثم مد قلمه وكتب عنوانًا: «مشروع البيان»، ثم عاد بظهره إلى الخلف وضحك، ففهم جمال حماد فورًا سر ضحكته؛ فما هي هذه الحركة البلهاء أو ذلك الانقلاب المضحك الذي لا يعد بيانًا مسبقًا يذيعه بمجرد ما يقوم به؟! لا شيء معدًّا، ولا شيء جاهزًا، بل المثير للشفقة

أنهما وحدهما الآن مطالبان بأن يحددا ماذا يريد التنظيم الذي ضم تسعين ضابطًا شاركوا في ليلة الانقلاب مع قرابة ثلاثمائة صف ضابط وجندي. نحن التنظيم الذي تمرد منذ ساعات على قياداته وحكومته، وسيطر على مقر قيادة الجيش، لم يجب إطلاقًا عن سؤال ماذا بعد، لسبب بسيط للغاية أنه لم يسأله!

كانت كل منشوراتهم تسب وتلعن في الفساد، وتعلن الغضب والرفض. لو سألهم أحد الآن: طيب يا جماعة عايزين إيه دلوقت؟ ماذا نفعل كي تنبسطوا؟ فلا إجابة واضحة! هم غِضاب جدًّا لدرجة أنهم لم يجهزوا ماذا لو نجحوا في إعلان غضبهم، بل حين ينتصر غضبهم! الغريب أن حكيم وجمال لم يقرأ كلٌّ منهما كثيرًا من منشورات الضباط الأحرار. كان جمال منصور في سلاح الفرسان وجماعته من يكتبونها ويطبعونها، ويشاركون هم في توزيعها، وأحيانًا كان عبد الناصر يكتب عدة سطور وربما منشورًا، ولم يكن يعنيهما إلا الإعلان عن أن التنظيم هنا وموجود وغاضب، والجيش يغلي ضد الفساد، وحال البلد المائل! أكثر من ذلك فلن تجد! حماد قرأ منشورات الضباط، لكن عمره ما كتبها، ولعله يتذكر بعض ما فيها. لكن هل نحن نكتب منشورًا للتنظيم الذي كان هدفه الأسمى هو تجنيد الضباط بهذه المنشورات، أو كسب تعاطفهم معه، أم نكتب بيانًا للأمة؟ لكن جمال عبد الناصر طلبه للجيش وللشعب! نعم لم نحصل بعد على جيش موالٍ ومؤيد، وبالطبع لا نعرف أين الشعب لنسمع رأيه. لماذا يبدو عبد الناصر واثقًا جدًّا في هذا البيان قبل أن يقرأه أصلًا، بل لم يحدد ما يريده في البيان؟ يثق عبد الحكيم أن جمال أعد لكل شيء عدته: اليوم الذي أجَّله، والوقت الذي غابه مع صاحبه المحامي الإخواني حسن عشماوي، والإسكندرية التي كان

ينتظر قدوم خبر منها، ليس من البحرية، بل من شقة مصيف يصيف فيها مرشد الإخوان، ثم علي صبري الذي أعطى التمام لعبد الناصر وأبلغه أداء مهمته مع الملحق الأمريكي، كل هذا يشي بأن صديقه داهية، أثمرت معه سنوات لعب الشطرنج (كان حكيم يفوز عليه في «جبل الأولياء» فيغضب ويحتد عبد الناصر، حتى إنه فوجئ به في الإجازة التالية وقد أحضر كتبًا في الشطرنج ليذاكرها ويهزم حكيم بها).

ـ وصف حال البلد.

قالها حكيم وهو يكتب حروف الجملة على الورقة، وأضاف:

ـ هزيمة فلسطين، تطهير الجيش.

ثم أضاف مخاطبًا حماد:

ـ اكتبه كما قال لك جيمي.

ـ لكنه لم يقل سوى أن أكتبه!

ـ أنت متفق معي في هذه العناصر؟

ـ تمامًا.

ـ خلاص، على بركة الله.

نهض حكيم وهمَّ بمغادرة الغرفة، فلاحقه حماد بالسؤال:

ـ طبعًا بتوقيع اللواء نجيب؟

ـ وهل هذا سؤال؟

ثم تردد وعاد إليه برأسه:

ـ نكتبه باسم الضباط الأحرار.

عاد وتردد مرة أخرى:

ـ اكتبه، ولما نشوف جيمي ماذا سيقرر.

كانت المهمة هائلة فوق كتفي جمال حماد، روحه كلها في قلمه الحبر،

ووجدانه يتلاطم مع عقله في طاحونة من الأفكار والعواطف والرهبة والهيبة؛ هذا أصعب كثيرًا من إطلاق الرصاص، أو اقتحام الكتيبة، أو احتلال معسكر، أو تحدي حصار البوليس الحربي، أو حتى قذائف حرب تضرب فوق خندقك! يكتب الآن ما قد يُغيِّر التاريخ، وما قد يُخلَّد في المستقبل، وما قد يموت قبل أن يولد، وما قد يحدف به حدف بحر لغريق. لقد جاء ليشارك في غلق طرق حول مبنى القيادة، أو كردونات لمنع مرور قيادات الجيش لمعسكراتها، وحراسة الطريق المؤدي إلى السويس خشية تحرك قوات من القاعدة الإنجليزية إلى القاهرة حين تعلم ما فعله ضباط القاهرة، لكن فجأة بات مكلفًا بكتابة بيان الجيش! لم يكن قد كتب سطرًا في منشورات الضباط الأحرار، ولم تعجبه لغتها الزاعقة واقتباساتها من مقالات الصحف النارية.

لكنني أديب، وقلمي رشيق، ولم يخترني عبد الناصر إلا إعجابًا. نشوة الكاتب سحقت حسابات الضابط، ووجد نفسه يكتب السطور سراعًا. فتح غطاء قلمه الحبر وكتب. مضت الكلمات تحت سن القلم منضبطة على الورقة الفلوسكاب البيضاء غير المسطرة، لا تلجلج ولا تردد، شطب كلمتين فقط ثم نظر إلى ساعته، فوجد نفسه قد وصل إلى سطر التوقيع بعد نصف ساعة، ويجهل بما يصف نجيب في البيان الذي كتبه له. هل أكتب مدير سلاح المشاة، أم رئيس مجلس إدارة نادي الضباط المنحل، أم أكتب اللواء محمد نجيب فقط؟

لكن برقت الفكرة فورًا في ذهنه فكتبت نفسها بقلمه:

«القائد العام للقوات المسلحة»

ظل ممسكًا بالورقة، وقد عيَّن هو الصاغ جمال حماد وبنفسه، اللواء محمد نجيب قائدًا عامًّا للقوات المسلحة!

دخل عليه حكيم فوجد الورقة في يده وقد امتلأت بسطوره:

ـ عال!

أخذها منه وقرأها، واستحسن المكتوب بإيماءة رأسه المصحوبة بابتسامة تكاد لا تفارقه، وأعاد إليه الورقة، وقال:

ـ هاتها وتعالَ.

دخلا عليهم غرفة القائد العام. كان حماد مختالًا ككاتب، ومنجزًا للمهمة كضابط. كان عددهم قد صار أقل، وثقتهم باتت أعلى. تناول جمال عبد الناصر ورقة البيان من يد حماد الممدودة، فقرأه وأومأ برضا سريع دونما تعليق، ثم سلمه لنجيب الذي تمهل في قراءته بصوت مهموس ثم مسموع، متأمل ثم متمهل:

> اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبَّب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين. وأما فترة ما بعد هذه الحرب، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها.

أطرق برأسه راضيًا، وألقى نظرة استحسان على جمال حماد، ثم عاد لترتفع نبرته بالقراءة:

> وعلى ذلك، فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم، وفي خُلقهم، وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب. أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين، فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيُطلق

سراحهم في الوقت المناسب. وإني أؤكد أن الجيش
اليوم.

توقف، ثم نظر إلى جمال عبد الناصر وهو يقول:

ـ أريد أن أضيف هنا كلمتين.

أشار عبد الناصر بالموافقة بهزة رأس وفرد كف يد تعني «طبعًا اتفضل».

نزع نجيب القلم المرشوق في طاقم المكتب الجلدي أمامه، وأضاف:

وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح
يعمل لصالح الوطن.

ثم رفع سن القلم، ونظر إلى عبد الناصر مرة أخرى، ثم أخرج سهمًا بعد كلمة الوطن، وكتب قارئًا بصوت مسموع ما يضيفه:

أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في
ظل الدستور.

ثم عاد ووضع القلم جانبًا، وأكمل القراءة:

مجردًا من أية غاية. وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من
الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال
التخريب أو العنف، لأن هذا ليس في صالح مصر،
وأن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها
مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال. وسيقوم
الجيش بواجبه هذا متعاونًا مع البوليس. وإني أطمئن
إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم،
ويعتبر الجيش نفسه مسؤولًا عنهم.
والله ولي التوفيق.

وضع نقطة في نهاية الجملة الأخيرة بسن قلمه، الذي عاد وأمسكه، ثم وقَّع اسمه تحت رتبته الجديدة:

القائد العام للقوات المسلحة
اللواء محمد نجيب

ثم أرخ تحت التوقيع:

٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

٦

لولا فوزية ما جاءت هذا الحفل، ولا عتبت قصر أخيها الأخرق الذي سيُلقي بالعائلة كلها في أقرب داهية. كانت الأميرة فايزة حانقة على حفل هذا المساء الذي صمم زوجها على أن تحضره معه، رغم أنها ليست ممن يصغون لزوجها كثيرًا، فضلًا عن أن تطيعه، لكنها جاءت لخاطر فوزية، فلا شيء يسعدها أكثر من بعض البهجة لأختها الكبرى صاحبة النيشان الأكبر الإمبراطوري الإيراني والجرح الفارسي الذي نشن على قلبها فأصابه بذلك الحزن المفروش كبقعة حبر على قلبها، لا تزول ولا تبهت. تركت ابنتها شاهيناز مع طليقها الإمبراطور بهلوي، بعيدة عنها، فتركت شيئًا من قلبها معها هناك في طهران، وها هي تعيش مكلومة ومهمومة تحت غلالات الهدوء والسكينة في قصرها مع زوجها الجديد إسماعيل شيرين، الذي تحوَّل من زوج شقيقة الملك الكبيرة وضابط الاتصال بين القصر والحكومة، إلى وزير الحربية هذا الصباح. ماذا فعل إسماعيل الطيب في نفسه؟ ولماذا رضي بأن يكون تمثال قش بجوار أخيها الملك الملول الحرون؟ نعم، الجميع يعرف رأيها في أخيها ومملكته كلها على بعضها. يتذمر فاروق منها بمد شفتيه، وتكشيرة الطفل المدلل الذي يحاول

أن يبدو رجلًا حين يقابلها، ويغمز ويلمز بما يسمعه عنها وعن سهراتها، كأنه بروح أمه لا يسهر ولا يلهو على عين رعيته وبين شهود المراقص التي يبتذل نفسه فيها، بينما هي في قصرها «الزهرية» تعيش كما يليق بأميرة. هو لا ينزعج من سهراتها وحفلاتها ومآدبها في قصرها، بل ينزعج من أنها لا تتردد في أن تعلن رأيها في أفعاله الخائبة: ملك يشكل أربع حكومات في شهر تقريبًا ويريدها أن تسكت عن ملاحظة لاذعة وسخرية سليطة عليه وسط ضيوفها! هو يجهل أنهم هم أنفسهم يفكون ألسنتهم حين يفكون رابطات أعناقهم أو بوبيونات ردونجوتاتهم وهوانمهم يرفعن الحرج حين يرفعن الفوريرات عن أكتافهن والقبعات عن رؤوسهن، ويقولون ويقلن عن مليكهم ما يخربش بسواده وسوئه قلبها (فهو في الأول والآخر أخوها)، ثم إنها معه في مركب واحد، بل لعله وحيد. وهو حتمًا سيغرقنا، لأن لا رجل يقف أمامه، بل ليس أمامه إلا أمه، آه أمه، أمنا نازلي، ملكة العصر والأوان، الملكة الأم التي فرت من نجلها المعظم المفدَّى، جنينها ومجنونها الذي صار ملكًا بعدما مات الرجل الذي كان يشكمها ويلجمها، عائلة المساكين الملكية. جرحته أمه كما جرحتنا جميعًا، حين صاحبت أحمد حسنين باشا معلم ابنها ورئيس ديوان قصره. هو رجل كان خبيثًا ألعُبانًا أفعوانًا الله يرحمه، وأسقط أمها في شركه، بعد أن أطلق موت أبيهم سراحها من السجن الحريري، زنزانة من ذهب صنعها لها السيد الوالد ملك مصر والسودان فؤاد، الذي صار فؤاد الأول بعد ما المحروس أخي أنجب من النكدة البلهاء ناريمان فؤاد آخر.

من فك فؤاد الأول، إلى انفكاك والد فؤاد الثاني، أحست أمها أنها تفقد ما يمنحه لها تاج الملكة الأم من صولجان، فلا هي تتحكم في ابنها المطلوق بلا لجام، يجري وراء شبحه، ولا هي ترتع في الحياة بهجةً،

تأخذ ثأرها من روح زوجها صاحب زنزانتها وسجانها. ها هي هجت من مصر كلها، وأخذت في يدها فايقة وفتحية. أما فايقة فلعلها الآن ترفل في فستانها الأبيض الدانتيل، وعقد الماس يحيط بعنقها، وشعرها مصفف بطريقة هوليوودية، ممسكة بيد زوجها فؤاد صادق في سهرة في ليالي هلسنكي البيضاء، حيث لا تغيب الشمس أبدًا. لقد سافرت للدورة الأولمبية لاعبة لا أميرة، لكنها كانت قد عادت منذ عام متخلية عن أمها، خوفًا من حرمانها من ثروتها كما هددها فاروق. كرت خانعة، والتمست منه الغفران والرحمة وعودة الإرث والأطيان والقصور والأسهم والحاشية، فرق لها قلبه، بل الحق أنها أرضت غروره حين خافت منه وارتعدت من غضبه حين تزوجت رجلًا من عامة الشعب التقطته من قنصلية مملكة أخيها في سان فرانسيسكو، بل تزوجت منه بعقد مدني تحت رعاية أمها، ثم عادت ومثلت منحنية تلثم يدي أخيها بعد أربع سنوات من الإمساك بذيل فستان أمها من إيطاليا إلى فرنسا إلى سويسرا إلى أمريكا، وعادت لتتزوج فؤاد صادق نفسه بعد الرضا الملكي، على سنة الله ورسوله، بعقد كتبه وكيل أزهر أخيها الملك. نجت بأموالها، لكن لم تنجُ مما ينتظرنا جميعًا على يد أخيها الذي لم يتورَّع أن يأمر صحفه ومجلاته وكلاب حراسته بالنهش في عرض أمه الملكة، عقابًا لها على تحديه، وإصرارها على زواج فتحية من هذا الفسل الكريه رياض غالي، نعم هو عيل تافه، أول صعيدي «جوكولو» تقريبًا في الدنيا، ومؤكد أن إشهار إسلامه لا يمنع أنه مسيحي منقوش الصليب على قفص صدره. لكن أليس هذا كله بسبب هذا الأخ البدين الذي يدخل الآن كأكبر بطة بيضاء في أسرة محمد علي، يصافحنا ونُقبِّل يده، وهو الابن الذي أباح لنفسه أن ينزل متجولًا حول أسوار قصر عابدين، يرى الشارات والعبارات التي سمع من خاصته

الخلصاء أن الحرس الملكي يزيلها من مطلع الفجر عن الجدران؟ هرع فنزل ليرى ما المكتوب. كانت العبارات بخط كبير متقن وعريض وأسود في بعضه وأحمر في بعضه الآخر: «فاروق ابن العاهرة». فإذا بابن نازلي التي هي العاهرة المعنية، يأمر بعدم إزالة الشعارات، ولتظل الكتابات على الحوائط على مرأى من الرائحين الغادين. هل هو يعاقب أمه، أم نفسه، أم أنه مازوخي يعذب نفسه بأمه؟

تنهدت الأميرة فايزة (نجت فايقة إذن بسفرها من حضور حفل فخامة التعاسة) وهي تتأمل أفراد الفرقة الموسيقية المتأنقين مخلصين إخلاص فرقة سفينة «تيتانك» الموسيقية، يعزفون لحنًا بلا راقصين، في حفل البهاء الباهت. تتجول بنظراتها الضجرة في المصابيح المتوهجة المعلَّقة فوق الأعمدة الرخامية، وأقواس الشرفة المنقوشة والمذهبة، والتراس الفسيح الذي تنتظم فيه الموائد الممدودة بالفرش الملكية، وطواقم الخزف الإيطالي والسيفر المرسوم عليها التاج الملكي، والملاعق والشوك والسكاكين الذهبية، والشموع في أحواض الزجاج الملفوف الملون، والستائر المخملية المسدلة عند بعض النوافذ الزجاجية، والأخرى المرفوعة عن الزجاج الشفاف الذي يكشف منظر البحر الهادئ الذي يصل موجه حتى أسوار القصر فيضرب لحن «فالس» سكندريًّا.

تاقت للعودة إلى رحلة الصيد التي كانت على متنها فجر اليوم مع زوجها محمد علي رؤوف (تضحك في سرها، فهي تعرف أن رفقاءهم والطبقة العلوية كلها تسميه «محمد علي خروف»): الرملة البيضاء، وصيد الجمبري ومخلوقات البحر الأزرق الملونة، وهذا القارب الشراعي المكشوف ذو الصواري. طبعًا لم يكن معها فاروق، فهو كان غاطسًا في الرمل أو في البحر مع ناهد وصيفة زوجته، كسولًا على الشاطئ، أكسل حتى من أن

يخون زوجته مع وصيفتها. فايزة شخصيًّا لا تطيق أساسًا أن تخرج معه في رحلة، فهو قادر على إفسادها في أي لحظة بطلب أو جملة أو مسلك غريب من غرائبه! يعذبهم كما كانت تضبطه يعذب القطط في حديقة القصر ويخنقها ثم يجري مبتعدًا عنها كأنه لم يرها، وكأن أحدًا لا يراه! مسكينة تلك القطط ذات الأصول النبيلة والسلالات النادرة والجنسيات المتعددة القادمة على متن سفن وبواخر ملوك وسفراء، هدايا للأمير الوديع! أليس جديرًا ببلاط هذا القصر أن يجلبوا من حواري عابدين قططًا لقيطة تفدي قطط الحسب والنسب من مصيرها المفجوع؟ كلما رأت قطة في القصر تجري في الحديقة أو تقفز سلمًا رخاميًّا أو تختبئ عند جذع شجرة، أشفقت عليها من مطاردة صبي سيكون ملكًا، فهربت الهِرر من الهِر فاروق.

كانت تطل من حافة المركب، فترى أسرابًا من الأسماك الصغيرة تلون الماء بضوء متوهج مغمور تحت الزبد الأبيض الذي يرفعه الموج ويهبط به، مطلقًا فقاعات بيضاء تقفز منها الأسماك، كأنما فضولها يدفعها إلى التلصص على مركب الأميرة التي تضحك في صخب عندما يسحب «جوجو نعوم» ابن الحاخام الأكبر سمكة جمبري طويلة وثخينة فينافسه قصب سنارة «الماركيز دي بيرينات» وقد تعلق بها جمبري أكبر. الطهاة انتهوا من إعداد مائدة الجمبري والكافيار مع كؤوس الشمبانيا على ظهر مركب في فجر يوم تحوَّل ليله إلى حفل كئيب، دعا فيه فاروق عائلته الملكية بمناسبة تعيين صهره وزيرًا للحربية.

حطت على الحفل غمامة غمٍّ تلاحظها على وجه الملك، وقد عاد بظهره إلى الخلف في مقعده الوثير المرتفع، وقد اقترب منه سائقه حلمي حسين الذي يحمل رتبة الأميرالاي العسكرية (يا خيبتك يا إسماعيل يا زوج أختي! أوزير حربية على هؤلاء؟!)، وهو يهمس للملك بشيء تحركت

معه عنق فاروق، ونفر من كتف زوجته التي كاد يلامسها، ثم سرعان ما يهرول رئيس الحرس الملكي شخصيًّا ليتطفل على حفل عائلي فيزيده كآبة على كآبته المكتفية بذاتها. هناك شيء ما مقلق ألقى عدواه في الحفل، حتى إن إسماعيل شيرين ذهب مستأذنًا الملك ليغادر الحفل مع رئيس الحرس الملكي، ليغيب لحظات ثم يقفل راجعًا، والسائق الأميرالاي لا يكف عن الثرثرة في أذن مليكه.

لم تصدق نفسها الآن وهي تشفق على أخيها، وتتبدد كل أبخرة الحنق عليه، عندما لاحظت رعشة يده وهو قابض على كأس المياه الغازية، فهو حتى لا يحتسي خمرًا ترخي أعصابه أو تهدئ روعه في لحظات مثل تلك التي تلف أنشوطتها على عنقه. يبدو أن المسألة فعلًا معقدة، فإسماعيل شيرين يدخل هلعًا، ثم الملك يقف جزعًا، يصطنع ابتسامة باردة وهو يرفع كأسه تجاه إسماعيل شيرين وفوزية:

ـ مبروك يا إسماعيل.

مبروك على أي شيء تقريبًا يا جلالة أخي الملك، وإسماعيل شاحب الوجه، وأنت مهتز الكلمات، ونحن نتلقى إشارة بانتهاء الحفل؟!

نظرت إلى زوجها، وقالت له:

ـ روح شوف ماذا يجري!

لا راح ولا شاف، فقد انفضوا جميعًا من شرفة القصر كأنهم غطسوا مع الجمبري، وقد اسودت الرمال البيضاء!

* * *

ولج إسماعيل شيرين إلى القاعة التي جلس فيها الملك فاروق على مقعد خشبي محشو بحاشية من الحرير، ومُطعَّم بأرابيسك، وينتهي مسنده الخشبي المبطن بالقطيفة العجمية بقرص من العاج على هيئة التاج الملكي،

لكنه بدا منكمشًا، عكر المزاج، وهو يرفع رأسه تجاه شيرين الذي لم يصدق مرتضى المراغي وقد أنهى مكالمته الهاتفية منذ لحظات وهو يخبره بأن الملك أمر بتجهيز يخت «المحروسة»! هو وزير حربيته منذ أربع وعشرين ساعة فقط، لكن أليس هذا أمرًا يستدعي أن يعرفه؟ لقد تواصل سائقه الأميرالاي حسين إذن مع اللواء جلال علوبة قائد البحرية من خلف ظهر حيدر قائد الجيش وظهري!

أغلق إسماعيل شيرين أسئلة عقله حين سمعت أذناه رئيس الحرس الملكي أحمد كامل يتلو شيئًا كأنه برقية أو تقرير أو بلاغ، وقد طلب منه فاروق أن يعيد ما قاله ثانية:

ـ الأميرالاي طيار صالح محمود اتصل بعامل التحويلة في مطار مصر الجديدة، وطلب توصيله على وجه السرعة بضابط الحرس الملكي في قصر القبة!

ـ ثم؟

ـ أخطر الطيار ضابطنا في القصر بأن هناك مجموعات من الجيش تتحرك للانقلاب ضد الحكم هذه الليلة، وترجَّى من القصر أن يتخذ احتياطاته وإجراءاته اللازمة فورًا للقضاء على هؤلاء المتمردين!

تعثرت الكلمات الآن معلَّقة على لسان إسماعيل شيرين:

ـ إذن، ما كان يحذرنا المراغي منه طوال النهار صحيح!

رفع فاروق رأسه نحو شيرين مستنكرًا كلامه، ومنكرًا عليه تصديقه لمثل هذه الأخبار. وتعجرفت حروفه وهو يخاطبه:

ـ وأين كنت طوال النهار؟

رد راميًا عن كاهله أي مسؤولية (فهل سيعتبرني مسؤولًا؟!):

ـ كنت في رحلة صيد.

أضاف محمد حسن خادم الملك الذي هب دون توقع، وصاح دون صراخ:

ـ يبدو أن الأمر جلل يا مولاي!

صفعهم فاروق جميعًا بضحكة مقهقهة متهكمة ومتدحرجة من الطبقة العليا للحنجرة:

ـ مش معقول الكلام ده! الجيش في جيبي!

ثم أضاف ربما كي يطمئنوا هم لا هو:

ـ على كل حال اتصلوا بحيدر وحسين فريد، وبلغوني إيه الحكاية بالضبط.

كانت الحكاية بالضبط قد وصلت الملك صباحًا، فأمر أمينه الخاص بالاتصال بوزير الداخلية مرتضى المراغي الذي رد مجهدًا ومرهقًا ومستقيلًا، لكنه فوجئ بأمين الملك يتحدث بصوت هادئ واثق:

ـ البلد هادئ، ولم يحصل سفك دماء، وهي حركة محدودة أعلنت ولاءها لجلالة الملك، وقد تكرم واستجاب بتعيين حكومة جديدة، وكل ذلك بحكمة مولانا، ونشكرك على جهدك وحكمتك أيضًا.

أجاب مرتضى المراغي:

ـ أشكرك.

ثم ضغط على أسنانه ليلجم انفجار كلماته من فمه:

ـ أرجو أن تبلغ مولانا أن مرتضى المراغي يودعه ويقول له مع السلامة!

أحس المراغي لحظتها بصوت سعال، فأدرك للتوِّ أن الملك معهما على الخط.

رد الأمين مرتبكًا:

ـ ماذا تقصد؟

أجاب المراغي قاطعًا:

ـ لا أظن أن الأمر قد انتهى. والوضع لم يهدأ!

كان صوت الملك يأتيه من سماعة التلفون حانقًا غليظًا مكتومًا من وراء صوت أنفاس أمينه الخاص:

ـ قل له إن هذا كذب! كذب! كل هذا كذب!

تحشرج صوت الأمين الخاص، وقال بأداء بالَغ في أن يكون مهذبًا وهادئًا:

ـ أظن هذا الكلام مبالغ فيه يا باشا!

لحظتها ارتفع صوت الملك واضحًا منفعلًا وغاضبًا:

ـ قل له يا ابن الكلب إن هذا كذب!

٧

كأنه يخوض عباب رؤيا ملهمة داخل حلم صافٍ في نومة هادئة. أحس محمد نجيب نفسه معلقًا بين أرض وسحاب، وليس جالسًا في مقعد العربة الجيب العسكرية المكشوفة التي لم يبرد حشوها الجلدي من دفء جلسة القائد العام الذي أقاله منذ ساعات. فوقه سماء القاهرة، وقد سطع نهارها على غير ليلها وليله، حين كان محمومًا بالتوتر والترقب، (وليكن صريحًا مع ذاته) كان مرتجفًا رجفة الخوف ورجيف القلق، حتى رن التلفون الأسود، فرنت الدنيا جرسًا لمصر (وله).

ها هو الآن يتمجلس في المقعد الخلفي للسيارة المكشوفة. القائمقام أحمد شوقي، الرتبة التالية له في القيادة الآن قائد القاهرة، يقعد بجوار الجندي سائق السيارة، بينما تتقدمه عربات الجيش ومدرعاته، وتصحبه خلفه عدة عربات أخرى أثقل وأبطأ تحمل جنودًا، وتبرز منها أذرع ببنادق وفوهات مدافع، وعساكر وضباط يقفون على حواجز السيارات الناتئة، بينما عدد من الموتوسيكلات يسوقها جنود تندفع بأصواتها الصاخبة، وأبواقها الزاعقة، وباحتكاكات عجلاتها في الأسفلت، وبانحناءات والتفاتات تتحوط وتستعرض، تطوقه يمينًا وشمالًا، وتُشكِّل مقدمة

موكب وجناحي قافلة تعلن عزة الجيش الجديدة، تنخر شارع الملكة، وتدخل إلى شارع عماد الدين ثم باب اللوق، إلى شارع الشريفين إلى ميدان الإسماعيلية.

يتأمل نجيب الرؤوس التي تطل من الشرفات، تقف على بوابات العمائر، تخرج على عتبات البيوت والمحلات، والسيارات القليلة التي تقف أو تتنحى أو تهدئ من سرعتها. الواقفون عند محطات الأتوبيس يتواثبون، يتثبتون، يتطلعون، يتسمرون، يستغربون. لوَّح لهم نجيب، فكأنما كان إذنًا لهم بالتعبير. رأى في السير الذي أراده بطيئًا وسائحًا في شوارع كثيرة، تلويحات أيدٍ فرحة، وثبات أجساد تختلس النظر والطلة، وابتسامات تمر أمام عينيه، ربما شفاهًا مفتوحة تتكلم أو تفغر دهشتها أو تهتف مؤيدة، لعلهم جميعًا سمعوا بيان الجيش ممهورًا باسمه في الإذاعة، لا يكف عن الإلحاح على مسامعهم منذ السابعة والنصف صباحًا، فعرفوا أن جديدًا قد جد.

جاءت أصوات الطائرات مدوية تخرق السماء، قريبة تحلق فوق الموكب في خطفة طائر، ثم تعود لتشق طريقها إلى أعلى. عدها نجيب وهو مزهو بما فعلته من إلقاء الرهبة فوق رؤوس البلد كله، تعلن قوة الجيش الذي امتلك البلد أرضًا وسماءً. كان قد عرف من البغدادي وحسن إبراهيم عندما وصلا إلى مبنى القيادة مع الشفق، أن السيطرة باتت كاملة على القاعدة الجوية في ألماظة، وأنه مع بهاء النهار ستطير الطائرات لتعلن انضمام الجو لدبابات البر. تأخر سلاح الطيران جدًّا، ولم يشارك ليلًا في الخطة المرسومة، لكنه يطير بها الآن صباحًا في سماء القاهرة.

بقي البحر الذي لا يزال في إسكندرية الملك، وعلوبة بحَّار بحريته ويخته. لكن الشعب رغم جنازير الدبابات أو زئير الطائرات (أو ربما

بسببهما) ما صدق، ففرح وتهلل وأيَّد والتف حول أجهزة الراديو في البيوت والمقاهي والمحلات والشوارع يبارك بركة الحركة. أخبره بهذا أولاده (أولاده في الجيش، فلم يكن حتى قد اتصل بأولاده في البيت. صغار هم لا يستوعبون ما يريد لهم أن يستوعبوه، وعائشة زوجته يكفيها للغاية أنها اطمأنت أنه بخير وليس سجينًا. طيبة عائشة جدًّا، لا هي فزعت لما يفعل، ولا هي انبهرت بما فعل)، هؤلاء الأفراد الذين لقيهم في طريق موكبه، تغمرهم السعادة. إذن فقد جاءهم اللواء المنتظر ليظهر فيُطهِّر. أهذه صيحات وهتافات باسمه؟ عاش نجيب أم عاش الجيش أم ماذا بالضبط؟ استحى أن يسأل أحمد شوقي الذي كان مشرئبًا بعنقه، ويديرها بين حين وآخر مبتسمًا له ويومئ بالرضا، ثم يعود فيأمر هذا أو ذاك من الضباط بالتحرك من هنا أو الدخول إلى هناك.

أخذ الفرح براحه حين لمح باعة الصحف بجلابيبهم القصيرة يعدون بمحاذاة الموكب، وهم يرفعون جريدة «المصري» في صفحتها الأولى. كانت هي الجريدة الوحيدة التي طُبعت في وقت متأخر، وجرؤت على نشر عناوين حركة الجيش، زاهية بنبأ سبأ العظيم، وبشيء ما من معاني البيان الذي كان معدًّا للإذاعة. عندما جاءته نسخة تداولتها أيدي الضباط في غرفة القيادة في بكارة الصبح اطمأن فؤاده، لأن «المصري» ستقود كعادتها الصحف خلفها، فهي الجريدة ذات الولاء للوفد، الحزب صاحب الشعبية، وللزعيم مصطفى النحاس، زعيم الأمة. ها هي تتجاسر وتسبق وتنشر، وقد تردد الآخرون أو تمهلوا أو فاتهم السبق أو ينتظرون السوق من أحد، فكأنها تبارك ما حصل، وتدعو أو تدفع لما قد يحصل. وها هي حارةٌ، حرارة أحمد أبو الفتح صاحبها ورئيس تحريرها الذي كان مفتاحًا لكل ما جرى بالأمس، فلعله قد

أراد أن يتم دوره، وأن يدير هذا المفتاح في باب التغيير حتى آخره، فهو الذي أخبر صهره ثروت عكاشة بتسرب سر الحركة للملك، فقرر جمال الانقضاض خشية الانفضاض.

كان جمال هو من أشار عليه أن ينزل للناس. بين التجهيز للموكب وإتمام الأوامر اختلس نجيب لحظة، نزع خلالها ورقة الأسماء الثمانية من دفترها البُني، وطواها ووضعها في جيبه، ونزل مصحوبًا بالرفقة الحفية على درجات السلم من مبنى القيادة، فعانقته نسائم الصباح وطزاجة أنفاس النهار، فأعتقتاه من دخان غليونه وسجائر الضباط الذي أعمى الغرفة ضبابًا طوال الليل الذي آن له أن يقصر.

لم يكن نجيب، ولا أحد منهم، يعرف شيئًا عن الخطوة التالية، وطبعًا لا لأين، ولا من يخطوها، ولا متى.

ها هو البيان يأتيهم من الإذاعة مكررًا ومؤكدًا بعدما ألقاه أنور السادات وعاد إلى مبنى القيادة، وقد تولى إعادة تلاوته ضباط مجهولون لنجيب، كانوا أسوأ مما تحتمل أذناه. شخط في الهواء، فهو لا يملك أن يشخط في أحدهم (الآن على الأقل)، ثم إنه يجهل من المسؤول كي يشخط فيه، فقد تأذى من الضباط الذين احتلوا الإذاعة، وكل واحد فيهم يُلقي البيان بصوته النكير، وبقراءة تكسر اللغة، كأنهم قاموا بانقلاب ضد اللغة العربية وليس ضد الحكم!

ـ إما تبعدوا الراديو من المكتب عني، يا إما يقرأ البيان مذيعو الراديو!

حتى خطوة ما بعد قراءة البيان ما عمل حسابها أحد، أو لم يبلغه أحد بحسابها، لكن هذه اللحظة التي حسمها جمال وهو يُعلّق على سؤاله حول ماذا سنفعل (سمعها جمال «ماذا ستفعل» ولعله قالها كما سمعها جمال فعلًا):

ـ لازم حكومة الهلالي تمشي، ليس معقولًا أن نقوم بحركتنا ونقول للناس نطهر الجيش ولا نطهر الحكومة!

ابتسم نجيب وهو يرد ناظرًا بعينيه إلى حكيم الذي جلس بجواره يسنده عند السؤال:

ـ لكن حكومة الهلالي هي التي سبقتنا بشعار التطهير.

كان كل ما يرددونه متحمسين لحظتها هو إعادة صياغة عاجلة وشفوية لما نشرته منشوراتهم الأخيرة، ومعها منشورات تنظيمات وجمعيات سرية كانت تملأ مصر قبل ساعات من ذلك النهار، كأنما كان لكل شارع جمعية سياسية سرية، ولم يكن من هؤلاء الضباط الساكنين ثكنة القيادة من التقى أو رأى وزراء أو سياسيين من دوائر الحكم، سواء الوفد أو غيره، إلا لمامًا وقليلًا، وبعضهم في ذكريات بائسة. كان جُل ما يدركونه تمامًا وتفصيلًا هو شؤون الجيش، لهذا عندما نطق أحدهم (من بالتحديد لا أحد منهم ساعتها اهتم، ولا بعدها تذكَّر!) باسم علي ماهر، اتفقوا فورًا دون مناهدة ودون مناقشة:

ـ علي ماهر يُشكِّل الحكومة.

هل يوافق علي ماهر؟ ومن يُبلغ الملك بقرارهم؟

الثانية كانت أسهل. إن خال الملكة ناريمان، الطيار مصطفى صادق، لم يكف مُلحًّا عن الاتصال باللواء نجيب. ومستعينًا باسمه كصهر للملك وبرتبته العسكرية، نجح في إلحاحه، ورد عليه نجيب. كان قلق صادق واتصالاته اللحوحة المُريقة لكبريائه أمام عسكري التحويلات التلفونية، إنما بفعل ضغط من والدة الملكة أصيلة هانم كامل، السيدة التي دست أنفها (ثم رأسها كله) منذ سمعت نبأ الجيش، تحاول أن تنقذ عرش ابنتها بفضول وتطفل أم رؤوم على جيش سؤوم. كانت ملكة نحل شعرت

بانفضاض ذكورها عنها، فدفعت خال الملكة للحديث مع اللواء نجيب، الذي أجابه بأن الجيش يريد علي ماهر رئيسًا للحكومة.

ـ يعني لو عمل كده الموضوع يخلص؟

سأل نجيب الذي التفت لمن حوله، واستقر بنظرته على جمال وهو يرفع السماعة عن أذنيه، ليتأكد جمال أنه نفس السؤال الذي نقله إليهم نجيب، فأومأ جمال برأسه «أي نعم»، فعاد نجيب للسماعة، وأجاب خال ملكة بلا نحل:

ـ اعتبره خلص.

لم يخلص قطعًا، لكنه خلص من صادق، ومن إبلاغ الخبر الذي تكفلت الغرفة بنقله لكل من تنفس حول المكان. لكن من يُبلغ علي ماهر ويُقنعه؟

قال أنور السادات (إذ إن أحدًا منهم لا يعرفه، ولا التقاه، ولا يعرفون لا رقم تلفونه ولا عنوان بيته):

ـ بسيطة، نكلم إحسان عبد القدوس يروحله ويكلمه.

ـ وتروح معه.

كانت الإضافة من جمال. كان إحسان قريبًا منهم جميعًا، فهو الصحفي صاحب الوسامة الناعمة الذي أمدوه بمعلومات عن صفقات أسلحة الجيش، فجعل منها حملة اشتهرت، وعلت باسمه، وغسلت اسم الجيش من أدران هزيمة فلسطين، حيث باتت هي المسؤولة عن هزيمة الجيش في فلسطين أمام العصابات الصهيونية، رغم أن رصاصة واحدة من تلك الصفقات لم تصل إلى الجبهة، حيث كانت الحرب قد انتهت والصفقات نفسها لم تتم، لكن إحسان من يومها صديقهم، يترددون على مكتبه، ويتسمعون منه أخبار الحكم والحكومات.

ـ نكلم إحسان إذن.

ـ إحسان هنا فعلًا خارج المكتب، يجلس مع بعض الصحفيين والضباط.

صار إحسان مسؤولًا الآن عن تكليف رئيس حكومة، وهو يصحب السادات إلى بيت الرجل في الجيزة، مصحوبًا بعربات من الجيش لزوم إضفاء طابع السرعة والحركة والجدية، فالساعات تجري ولا يجب أن تسبقنا.

حينها طلب جمال عبد الناصر من نجيب أن ينزل ليتفقد الأحوال. وكان حكيم قد فهم الطلب أمرًا فابتسم. أدرك فورًا ما الذي يريده صديقه من ركوب نجيب سيارة جيشه المكشوفة، والمضي في موكب يتجول في قاهرة فاروق. كان جمال عبد الناصر قد وضع علامة «صح» على أسماء الأماكن العامة التي تمت السيطرة عليها كلها في القاهرة، وقدمها إلى أحمد شوقي، طالبًا منه أن يعبر بموكب نجيب على معظم هذه الأماكن. ثم انتحى جمال عبد الناصر في ركن من الغرفة مشيرًا لمن يقترب منه أن يبتعد، فيما عدا حكيم الذي دنا منه ولاصق كرسيه الذي جر معه سلك التلفون، وطلب من عسكري التحويلة أن يوصله برقم يحفظه جيمي دون أن يتردد في أي رقم فيه، فلما جاءه الصوت قال بعد تحيات مقتضبة وإن كانت مبتسمة:

ـ محتاجين ناسكم الآن يا عشماوي.

ثم أكمل:

ـ مجرد أعداد محدودة، فنحن لا نضمن من الذي يمكن أن يتشجع بكم على ما لا نتوقعه. آه اللواء نجيب بيمر، وهذا مهم، عايزه يشوفهم وهوَّ راجع.

عندما أنهى المكالمة وقام بجهاز التلفون في يده حيث المكتب، كان يهمس لحكيم:

ـ كان هذا اتفاقنا، لكنهم كالعادة يتلكأون.

رد حكيم:

ـ لقد أخَّرت الحركة يومًا من أجل خاطر عيون الإخوان، لازم يفهموا هذه الحقيقة!

ـ إذا كان عليهم فيروحوا في ستين داهية، لا خاطر لعيونهم، وإن كنا سنحتاج نخزقها أكيد لما يفتحوها قوي! أنا كان يهمني ألا يتحججوا بأنني فاجأتهم، وألا يلعبوا بذيلهم الذي يستأهل القطع مع ضباطهم وصف ضباطهم في الجيش!

ـ لم نكن في حاجة إلى ضابط واحد منهم!

ـ ولا هم كانوا سيشاركون يا حكيم، لكن كان ممكن يخربوا تحركاتنا، بالذات صف الضباط، فهم منتشرون فيهم أكثر. الآن يتفضلوا وقد نجحنا يورونا شطارتهم.

ثم تنهَّد وأومأ برأسه فأحنى قامته الطويلة وهمس لحكيم حتى لامست شفتاه أرنبة أنفه:

ـ أنا عايز اللي يهتف ويصقف للعساكر في الشوارع، وليس أمامي غيرهم الآن!

* * *

كانا قد تحركا من غرفة رئيس الأركان إلى الغرفة المجاورة، وبعيني حكيم كان قد أمر ضباطًا بإخلاء الغرفة إلا منهما. المكان بات يشغي ضباطًا، كأنهم ينقسمون كخلايا الجسد، يزدحمون ويتخبطون ويتصايحون، الغريب أنهم لا يفعلون شيئًا، ولا يقررون أمرًا، إنهم يتلقون التعليمات وينقلون المعلومات، وقد استقبل ضباط التنظيم ضباط القيادة وإداريي المبنى الذين وفدوا بجلبة الدهشة في مواعيد العمل، فأدوا التحيات

العسكرية والسلامات المدنية لمن وجدوه من الضباط الذين حلوا محلهم وجلسوا على مكاتبهم، وتبادلوا الذكريات عن أيام المعسكرات وزمالة الدفعات، وهنأ ضباط الصباح ضباط الليل، وبعضهم انفعل فرحًا فبكى دمعًا، ولما انتهت تلك اللحظات قاد الضباط الجدد الضباط القدامى إلى السجن، كان اعتقالًا ودودًا وجماعيًّا، رحَّلوهم إلى الكلية الحربية التي صارت سجن الضباط المشكوك في ولائهم للحركة، حيث لا وقت للفرز ولا طاقة للاستجواب.

كانت صور الملك فاروق موزعة في الغرف والقاعات والممرات، بملابسه العسكرية البيضاء والسوداء، يمر عليها الجميع وينظر إليها البعض، لكنها في ذلك الوقت لم تكن إلا صورًا. القَسَم الذي أداه الضباط المنقلبون والضباط المعتقلون كان واحدًا: الله الملك الوطن. لكن الله وحده الذي يعلم ماذا سيكون مصير طرفي القَسَم الآخرَين: الملك والوطن، فهو علام الغيوب. أما هم جميعًا فكانوا ينتظرون خروج الأوامر من فم جمال، من وراء باب الغرفة التي انفرد فيها بحكيم، بينما تركوا البغدادي وزكريا وإبراهيم وحدهم، وذهب خالد محيي الدين مع ثروت عكاشة إلى مكانهما الأثير حيث سلاح الفرسان على بُعد أمتار.

أشعل حكيم سيجارة جمال الخمسين في هذه الليلة أو ذلك الصباح، فلم يعد يتبين الوقت من فرط ما بلعه الزمن في الأحداث والتفاصيل. ألقى جمال بظهره على أريكة صغيرة، وزادت سرعات سحب دخان السيجارة، بينما أنهى حكيم فنجان القهوة الذي توقف عن عد عدده، وطرق على المائدة وهو يقول:

ـ سأغلق النور والشبابيك وأتركك لتغفو وترتاح قليلًا، فأنت لم تنم!

دعت لهجته الحنونة جمال إلى الابتسام الراضي:

ـ ما إنت كمان لم تنم يا حكيم ومحتاج راحة!

ضحك حكيم:

ـ شفت نجيب لم يتوقف عن القلق والسؤال: هل يمكن أن يفعل الإنجليز شيئًا؟ هل ممكن يهاجموا القاهرة؟

ـ ليس نجيب فقط، الكل يسأل السؤال نفسه.

عاد حكيم وقال بحب وإعجاب أراد أن يصلا إلى صديقه الممدد على الأريكة فيربتان عليه:

ـ كلهم يملكون أسئلة يا جمال، وأنت وحدك الذي تملك الإجابة.

كان جمال واثقًا حين انفرد بعلي صبري أن الرسالة وصلت، وأنها متبادلة وأكيدة. كانت ورقة الخطة التي وضعها جمال، التي لا تفارقه وتكاد تلتصق بقلبه. إنها غير تلك التي خطها حكيم وقرأها زكريا منذ أربع وعشرين ساعة معتقدًا مع الآخرين أنها وحدها الخطة، وهي مجرد تحركات عسكرية وتحريك لقطع وحصار لمقرات وقبض على شخصيات، وهي لم تملك فعلًا من فرص نجاحها، كما أكد لهم جمال، أكثر من عشرين في المائة بل ربما أقل كثيرًا. لكن الخطة التي كانت لا تملك أي نسبة من نجاح وهي وحدها شرط النجاح، هي الخطة التي كانت منه وله وحده. طبعًا حكيم يعرفها لأنه يعرفه، أو يعرف أنها موجودة لأنه يعرف أن جمال يملك ما لا يملكه الآخرون. كتب جمال في كراسته التي يحتفظ بها في شقته، وقد سهر عليها ليالي، وفكر فيها أعوامًا:

ينضم لك الجيش، يؤيدك الشعب، يستسلم لك الملك،
لا يمنعك الإنجليز، يباركك الأمريكان.

كانت تلك العناوين، أما التفاصيل فمنمنمات كثيرات خطها وعدلها وفصلها وزودها وأنقصها وشطبها وصلحها وصححها كثيرًا.

كان علي صبري وصديقه «إيفانز» هما رقم واحد في هذه الخطة. لا يزال يتذكر وهو مستغرق في مشاهدة أحداث الفيلم الأمريكي التي تجري أمامه على شاشة سينما «مترو»، وهو مأخوذ بسحر قاعة السينما المظلمة وإشعاعات الضوء القادمة من غرفة خلفية علوية، يسمع أحيانًا دوران بكرات الفيلم من داخلها. يحب هذه اللحظات التي يدفع فيها قروش التذكرة الورقية الخفيفة، ويغادر شباك التذاكر الذي عادة ما تكون فتاة يونانية هي التي تقف فيه، ويتجول بنظراته فوق صور الفيلم المعلقة وراء زجاج نوافذ مثبتة في مدخل السينما، فيها الأبطال بقبعات الغرب الأمريكي وأحصنته، وتلك الممثلة الشقراء في قُبلتها الحارة مع البطل، تحت لافتة مكتوبة بالعربية هذا المساء، يقلب ورق الدعاية المصقول الذي يوزعونه كمجلات ملونة قبيل العرض، يجلس في ذات المقعد في كل مرة، مقعد على الممر في منتصف المسافة بين باب الدخول للصالة وباب الخروج الصغير المؤدي إلى شارع عدلي، شغفه بالسينما يجعله يأتي مرتين أو ثلاثًا كل أسبوع لمشاهدة الأفلام، يشاهد نفس الفيلم أحيانًا أكثر من مرة، لكن لا بد أن يكون حاضرًا في يوم بدء كل فيلم جديد. حكيم يحضر معه غالبًا مرة في الأسبوع، ونادرًا ما يأتي مع تحية، فهو يختار لها فيلمًا عربيًّا لو قرر اصطحابها معه إلى السينما، بينما يبقى هو مع فيلم «مترو» وحيدًا سعيدًا بتلك اللحظات التي تسحبه إلى حلم الشاشة الكبيرة. ليلتها، حين أضيئت أنوار الاستراحة بعد فيلم الكارتون وقبيل العرض الرئيسي، وجد هذا الشاب الأشقر ببدلة أنيقة وبلا طربوش على رأسه، يتقدم نحوه ويصافحه بعد أن تجاوز عددًا من المتفرجين والمتفرجات في الصف الأمامي ثم في الصف الذي يجلس فيه جمال:

ـ نحن نملك صديقًا مشتركًا؟

قالها بإنجليزيته الأمريكية، ففهم فورًا أنه «إيفانز» ضابط الاتصال في السفارة الأمريكية، وصديق علي صبري.

قابل ابتسامته بابتسام أقل وبرود أثقل، لا يريد أن يقتحمه بجلسة لم يحددها جمال، وبلقاء لم يطلبه، فهم أن «إيفانز» يريد أن يتحقق من كلام علي صبري، وهل هو فعلًا يتحدث باسم مجموعة من الضباط، هل هو فعلًا من ذلك التنظيم الذي تتراكم أمامه تقارير عنه، يرسلها للمخابرات الأمريكية ويتابعها مع مستر «كافري» السفير الأمريكي في القاهرة. هو يثق في علي صبري منذ كان في بعثة تدريبه في أمريكا، ولم يغب طبعًا عن متابعة زملاء «إيفانز» في القاهرة، لكن يريد أن يلتقي بالضابط الأهم وليس بهذا المندوب الصغير، يبغي معرفة المرسل لا أن يكتفي بالرسول. لكن كيف عرف «إيفانز» أن جمال هو الشخص المقصود؟ ومن أين عرف وجهه إن عرف اسمه؟ ثم كيف عرف أنه يرتاد سينما «مترو»، ويجلس دائمًا في مقعد يختاره بعناية مع عاملة التذاكر التي كادت تحفظ ملامح وجه هذا الشاب المصري الذي يبدو متحفظًا وصموتًا ولا يثاقل عليها بكلمات غزل معتادة من الشبان المصريين، بل إنه لا يبتسم، صديقه الذي يتردد معه فقط هو من يبتسم ويتعامل معها كأنها عِشرة عُمر، بل يترك لها بقية سعر التذكرتين إكرامية لطيفة؟

كان جمال يتلفت بحثًا عن وجوه تعرفه، أو وجوه يجهلها، تتابع هذا الضابط الأمريكي وهو يجلس بجوار جمال وقد بدأ عرض الفيلم. وقد علَّق «إيفانز» على البطل في الفيلم الذي يطارد الهنود الحمر ويواجه الظلم بصيحات تأييد وتشجيع، وصفق أكثر من مرة، وحين انتهى الفيلم همس «إيفانز» لجمال وهو يحييه منصرفًا:

ـ هذه هي أمريكا عزيزي جمال، إن قام البطل بمواجهة الأشرار فهي تُعجب به وتؤيده ولا يمكن أن تكون إلا معه!

عنَّف جمال علي صبري في اليوم التالي، على هذا الاقتحام الذي قام به «إيفانز» له في السينما، وأقسم علي صبري أنه لم يكن يعرف أي شيء عنه، بل يجهل تمامًا حكاية أن البكباشي جمال كان يذهب إلى السينما. كان علي صبري أدنى رتبة وأقل عمرًا من جمال، وكان مأخوذًا به، ومجندًا على يديه، وتحت إمرته في التنظيم، فما كان له أن يكذب. ثم إن «إيفانز» بما قاله، أكد ما كان صبري ينقله بدقة من اجتماعاته مع «إيفانز» في جلسات صحبة أو سهرات في أماكن عامة أو لقاءات تحت غطاء العمل العسكري التنسيقي. كان يتكلم بوضوح عن وضوح الأمريكان في يأسهم من فاروق. لكن جمال قبل ساعات من الحركة طلب من صبري اللقاء الفوري بـ«إيفانز» حتى لو تطلب الأمر زيارته في السفارة:

ـ أولًا تخبره عن أننا سنتحرك وغدًا. ثانيًا أن تطلب منه إبلاغ إنجلترا أن الضباط مشغولون بالجيش فقط، ولا ينوون استفزاز الإنجليز، ولا حاجة لهم للقلق. ثالثًا أنه لو فشلنا نريد تدخُّل الأمريكان بعلاقتهم الجيدة مع كل الأطراف حتى لا يُنكل بالضباط وأُسرهم، مع استعداد الضباط كلهم للموت في سبيل بلادهم إذا لم يكن هناك بُد من الموت.

كانت إجابة «إيفانز» قد ترجمها صبري في اليوم نفسه:

ـ توكلوا على الله.

ضحك جمال، وقال لصبري:

ـ هل «إيفانز» الأمريكي قال توكلوا على الله؟!

رد صبري الضحكة بضحكات:

ـ هو يعرف العربية، فلماذا لا يقولها؟ ومع ذلك فأنا مسؤول عن صياغة الترجمة.

سأله جمال بجدية تنم عن خطورة السؤال وخطر الإجابة:

ـ طيب وصاحبك الأعور، ماذا سيفعل؟

٨

انفتحت البوابة بأيدي الجنود المتقافزين، وضرب البروجي عاليًا، والعلم الأخضر فوق صاري السيارة العسكرية المكشوفة، يطل منها رأس اللواء نجيب، وتباطأت العربات في مقدمة موكبه، وتوزَّعت الموتوسيكلات المصاحبة عن يمينه وشماله، وتوقفت العربات الثقيلة الضخمة الملأى بالجنود عند مداخل الشوارع وحول أسوار الكلية الحربية التي دخلها الآن القائد العام الطازج بهيبة ساخنة بنار الفرن. ترجَّل نجيب وهو يرفع يده بتحية ترد على التحايا والاندفاعات الفرحة المرحة التي تطاوحت حوله من أحمد أنور، الضابط الذي قدَّم نفسه بصفته الجديدة، مدير البوليس الحربي، مكلَّفًا من جمال عبد الناصر بمهمة إدارة سجن الضباط والقيادات التي اعتقلتها قوات الحركة من كل الأسلحة.

كان أحمد أنور متطاووسًا وهو يمشي، موسولينيًّا وهو يتكلم، وقد عاد من مبنى قيادة الجيش بعد أن انقض على يد جمال عبد الناصر فقبض على كفه وقبَّلها دامعًا متأثرًا، ضربت فرحة الحدث أوتار قلبه حتى أذهلت الانحناءة والقُبلة عبد الناصر نفسه فأضحكته مستغربًا، فنفض كفه من قبضتَي وشفتَي أحمد أنور، وسط تكالب الضباط المهنئين، وربت

على كتفه وكلَّفه برئاسة البوليس الحربي، خلفًا لحسن عبد الوهاب الذي أخبرهم ليلًا أنه سيكون مع من يفوز، لكن الفائز قرر ألَّا تكون معه يا حسن!

حين أسرع أحمد أنور مندفعًا بدفعة مشجعة من كف عبد الحكيم على ظهره، ناداه عبد الناصر:

ـ لما يصل اللواء حسين عامر عندك السجن بلغني.

لم يكونوا قد قبضوا عليه بعد، كأنما فر أو اختفى، لكن لن يتركوه حرًّا، صحيح أنهم عرفوا منذ حلف إسماعيل شيرين اليمين وزيرًا للحربية في حكومة الهلالي أن حسين عامر لم يعد خطرًا، لكنه لا يزال عدوًّا.

تأمل نجيب مبتسمًا أحمد أنور. لم ينزعج من أنه لم يعينه، بل إنه لا يعرفه، وربما صادفه ضمن عشرات الوجوه التي قيل له إنهم الضباط الأحرار، هو أصلًا يجهل عددهم وبالطبع أسماءهم، ومن المؤكد وجوههم، ولا يعرف منهم إلا تلك الأسماء التي زارته مع جمال أو عرَّفه بهم حكيم. كان أبويًّا للغاية في تلك الساعات مع أي قبعة عسكرية، ثمة دفء وامتنان لمن فعلوا ما لم يجرؤ على فعله أحد: حركوا الدبابات والمدرعات لإعلان الغضب والاحتجاج على ما يموج في بلدهم من ظلم. رافقوه عند المدخل المؤدي إلى المبنى الرئيسي وسط ساحات الكلية المترامية التي تتوزع فيها عدة مبانٍ تشمل مساكن الضباط وعنابر الطلبة، وقد كان الوقت صيفًا والإجازة مفتوحة، فكانت الكلية مكانًا مناسبًا وصالحًا لأن يكون سجنًا في ساعات محدودة، فالعنابر صارت زنازين، والأسرَّة والدواليب موجودة، والشبابيك عالية، والأبراج منصوبة، والأسوار محروسة، ثم إن أي مبنى وإن كان قصرًا يمكن أن يتحول سجنًا متى شاء السجان.

التفت نجيب، وأبى الصعود إلى مكتب قائد الكلية، بل أشار بيده نحو المباني الأخرى:

ـ أين السادة الضباط المحتجزون؟

لم يجد أحمد أنور مشكلة في أن القائد يريد أن يتفقد سجناءه، لكن فجأة ظهر إسماعيل فريد بوجه جاد، وأقبل مهرولًا، وعظَّم لنجيب، وعرَّفه بنفسه:

ـ إسماعيل فريد يا أفندم، ياور سيادتك.

يعرف إسماعيل، فقد كان أول وجه يستقبله بالأمس، وركب معه سيارة الدخول الظافر لمبنى القيادة، لكنه تفاجأ سعيدًا بتعيين ياور له، ولم ينشغل قطعًا بمن عينه، فهو جمال عبد الناصر ولا شك، ثم إن إسماعيل من ضباط التنظيم.

ـ أريد مقابلة السادة الضباط المعتقلين يا إسماعيل.

لم يجب إسماعيل، فلا يملك جوابًا، لكن أجاب أحمد أنور متبرمًا من إسماعيل متوددًا إلى نجيب:

ـ تمام يا أفندم.

سبقه إلى مدخل مبنى، يقف في حراسته عدد من العساكر خلف مدفع وفوق مدرعة شدت من نجيب نظرة استغراب، لكنه اعتبر ذلك تأهبًا يليق بالموقف. حين ولجوا أمامه وخلفه إلى الممر الطويل الواسع الموزع على جانبيه أبواب الغرف، ووقف الجنود انتباهًا أمام كل غرفة، وإن كان بعضها مفتوح الأبواب، مكشوفًا جلوس أو نومة من فيها، وجد أحمد أنور يشير إليه بالدخول إلى غرفة بدت أوسع، وحراسها أكثر، وبابها مفتوح على مصراعيه، فلما استجاب ودخل وجد اللواء حسين فريد رئيس الأركان أول رأس مقطوف من حركة الضباط. أعطى نجيب التحية للواء الأقدم، والذي كان رئيسه حتى ليلة الأمس، وصافحه

بحرارة، والغريب أنهما تعانقا بلطف ومودة جعلا الحشد المرصوص وراء نجيب يتراجع، كأنما خافوا من هبوب حرارة عاطفة اللواءين في وجوههم. كانت الغرفة نظيفة ومرتبة، وحسين فريد لا يزال بذات بذلة ليلته الطويلة. وجلس نجيب على المقعد الوحيد في الغرفة، وهو يأخذ في يده فريد للجلوس على السرير أمامه:

ـ جئت أطمئن عليك وأُطمئنك.

ـ على نفسي أم على البلد أم عليكم يا نجيب؟

ـ لا، البلد اطمئن تمامًا، فهذا وضع لم يكن هناك مفر منه يا سيادة اللواء.

ـ إنتم ناويين على إيه؟

ـ كل خير.

ـ ألا تقلق مما قد يفعله الإنجليز؟

ـ تفتكر سيفعلون شيئًا؟

ـ لا أظن، لكن خُوفي ترجع هوجة عرابي وتوفيق، ونلاقي نفسنا مرة أخرى وجنود الإنجليز في ثكنات قصر النيل!

ربت نجيب على فخذه:

ـ أنا أقدر قلقك على البلد، لكن اطمئن.

ـ على نفسي؟

ـ طبعًا، وعلى كل الضباط هنا، هذا إجراء طارئ لحساسية الظروف، وكلها أيام إن لم تكن ساعات وتخرج من هنا.

ـ إلى أين؟

نهض نجيب من جلسته ضاحكًا:

ـ إلى بيتك، أو إذا شئت أكملت صيفك في الإسكندرية للراحة والاستجمام.

أحس حسين فريد صدق نجيب من وجهه وليس من كلامه، ومن يعلم؟ قد يكون صادقًا فعلًا.

حين خرج، والضباط المكدسون حوله في الغرفة تسحبوا سريعًا معه، نادى عليه حسين فريد وقال:

ـ ألن تزور شقيقك؟ إنه في الزنزانة.

صحح كلمته بعدما وثق أنها خرجت كاملة، وأضاف:

ـ في الغرفة المجاورة لي.

أومأ نجيب، ونظر إلى أحمد أنور وهما يخرجان من الغرفة إلى الممر، فأشار له أنور ناحية باب الغرفة التي هلع العسكري للإشارة ففتحها، فدخلها نجيب، ولما همَّ الضباط بمصاحبته منعتهم كف وذراع إسماعيل فريد مستخدمًا صلاحية كونه ياور القائد لأول مرة.

دخل نجيب، فوقف شقيقه اللواء علي نجيب قائد منطقة القاهرة، لكنهما لم يتبادلا التحية العسكرية ولا الأحضان، كانت غصة ما في حلق علي، وخجل ما في عينَي محمد.

ـ كيف حالك يا علي؟

لم يستطع علي أن ينسى أن شقيقه كذب عليه من أربع وعشرين ساعة، ونايمه وغافله وأوقعه في شرك أن يكون هنا، محبوسًا بين يديه، وعلى يد تلاميذه ومرؤوسيه، ومُداس الكبرياء.

أكمل نجيب سؤاله دون انتظار إجابة أخيه:

ـ طمِّني على صحتك!

ثم جلس هو على السرير، حيث كانت الغرفة تطابق الغرفة الأخرى في كل شيء، لكنه تنبه إلى أنها غرف سكن الضباط، ويبدو أن مكانة اللواءات دفعت المنقلبين عليهم إلى احترام ما تقدم من أقدميتهم.

ـ كان لا بد من أن الجيش يتصرف يا علي، ولم أكن أستطيع أن أتخلى عن أولادي أو أذيع سرهم!

صمت علي متفهمًا أو مرغمًا على التفهم، بينما واصل شقيقه:

ـ ثم كان من الجائز جدًّا أن أكون أنا نزيل هذه الغرفة وليس أنت، لو كنا تأخرنا.

قام من جلسته حتى لا يظن الضباط أنه خص شقيقه بشيء، وصافحه وتعانقا الآن، وهو يهمس في أذنه:

ـ على الأقل أنا كان ممكن يعدموني لو قبضوا عليَّ، بينما أنت ستعود إلى بيتك خلال ساعات أو أيام!

قال علي بنبرة دفء الأخ الذي يناشد قلب أخيه:

ـ أنا خايف على مصر!

ـ وأنا كذلك!

تعجب كلاهما، فأيهما من خوفه على مصر سوف ينقذها؟ ولم يكن متاحًا لكليهما أن يسأل مصر ساعتها ممَّ تخاف هي أصلًا!

خرج نجيب، وصاحبه الجمع كله إلى الغرف التالية، فصافح وقبَّل وعانق وطمأن وصرَّح وصارح ووزَّع ابتساماته الطيبة بصوته الأجش الخالي من الصرامة. كان وجهه يشبه عسكري هجانة، وصوته يشبه صوت شيخ طريقة، وأداؤه يشبه شيخ بلد، فأحبه السجناء والسجانون.

لكنه حين همَّ بالعودة، سمع صوت اللواء عبد الرحمن مكي الذي اعتقله يوسف صديق في ربع الساعة الأول من الانقلاب، سائلًا، تحمل لهجته تهكمًا لم يحاول إخفاءه:

ـ أليس غريبًا يا لواء نجيب أن تسجنوا كل قيادات الجيش ما عدا قائد الجيش نفسه؟ هل الفريق حيدر معاكم؟

كان سؤالًا وجيهًا باغت محمد نجيب، فهو نفسه لا يملك أي إجابة عن السؤال، وقد تمدد الآن في عقله: لماذا لم يفكر جمال عبد الناصر في اعتقال حيدر باشا؟ ولماذا لم يسمع عنه شيئًا ولا حسًّا؟

سوف يسأل جمال حين يعود، أو ربما يسأل عبد الحكيم عامر، فإن حيدر خاله. هل يقبض نجيب على شقيقه، بينما يعفو حكيم عن خاله؟! ثم هل غاب عن خاله قائد الجيش أن ابن أخته يقود انقلابًا مع صحبه ضده؟ وهل يمكن أن نطهر الجيش بدون أن نطهره من خال عبد الحكيم عامر؟!

* * *

أحس أنور السادات أنه يشاهد الفيلم الثالث، بل يعيشه. كان الفيلمان في حفل سينما «الروضة» يمران بأحداثهما وصورهما وأبطالهما أمامه منذ ليلة الأمس، ولم يكن يعرف أن ساعات تفصله عن فيلم ثالث تتبدل فيه خيول رعاة البقر بدبابات ومدرعات وعربات جيب تتحرك في مقدمة الكادر، ويحتشد حولها الجنود بقبعات كاكية بدلًا من قبعات القش الأمريكية. منذ أذاع بيان الثورة بصوته في الإذاعة وهو مشبع بالهدوء، كل مشاعر التوتر والقلق والترقب هبطت أسفل قلبه، ربما عند المعدة، قد ينفثها دخان السجائر التي يدخنها في السيارة الآن بجواره إحسان عبد القدوس في طريقهما لمقابلة علي ماهر. يحاول إحسان أن يقوم بدور الصحفي، فمن لحظة ركوبهما السيارة لا يكف عن الأسئلة، طبعًا بصياغته الرقيقة التي تشبه حد الموس، إن استسلمت لرقتها جرحتك، وبطريقته الهادئة الموزونة التي كان يتحدث بها معه حين كان يزوره في مجلته على مدى السنوات الماضية. طبعًا تبدلت المقاعد، رغم أنهما الآن متجاوران على أريكة السيارة، فلم يعد هو ذلك الضابط المفصول الذي يمد إحسان بحكايات الجيش، ويشتكي بطالته، ويغري كل حواسه الصحفية بروايته

عن عملية اغتيال أمين عثمان، ويأخذ رأيه في مقالات نشرها في صحف ومجلات، ويطلب نصيحة الأستاذ الناجح، بل صار أحد قادة تنظيم قلب مصر في أربع وعشرين ساعة.

كان إحسان الآن يحادث الرجل الذي ألقى بيان انقلاب يكاد يزلزل الأسفلت تحت عجلات سيارتهما، بل يتوجه إلى سياسي من رجالات الحكم ليكلفه بتشكيل حكومة جديدة. لهذا كان إحسان أكثر تواضعًا وأرق تودّدًا، ويحوم حوله بالأسئلة. لا يستطيع السادات أن يجيبه، بل يلف به ومعه، ويدوران حول بعضهما، ليس لأنه لا يبوح بأسرار، بل لأنه لا يعرفها. إحسان يسأل: وماذا بعد؟ لكن السادات لا يملك إلا ما قبل، لقد لحق بالليلة في آخرها، لا أمر فرقة بالتحرك، ولا قاد مدرعات للاقتحام، ولا خطب في جنود، ولا اعتقل لواءات وقادة، بل كان في السينما مع زوجته جيهان يستمتع بهواء الساحة المكشوفة وبسحر الشاشة البيضاء، وذراع جيهان المشبوكة في كتفه. صحيح أنه أتى على عجل من رفح لعلمه أن الحركة قد تكون بين يوم وليلة، لكنه لم يدرك أن جمال حدد الموعد أبكر مما اعتقد، وأنه مر عليه مرتين في بيته وترك خبرًا له بالقدوم.

تعلم من سنوات السجن والمطاردات والملاحقات، ومن استجوابات رئيس البوليس المخصوص السياسي إبراهيم إمام، أن يحتفظ بأعصابه في جيبه وتحت ضرسه، فلا يتعصب ولا يتوتر، ولا يترك لأي شخص أن يكشف خبيئة روحه، ثم الزنزانة ولياليها تدربك على «نيرفانا» التحليق في السقف أو التحديق في قضبان الشباك العالي الضيق، ساعات من الصمت تبرد كل السخونة التي تلهب عقلك.

في السينما ودع قلقه عند شباك التذاكر، وقرر أن يستسلم لتلك

اللحظات الوديعة مع هذه الشابة البيضاء التي يغني لها أغاني فريد الأطرش، متعشقًا مغرمًا، ويعتبرها هدية الله له على تحمل شظف وسخف الحياة. زوجته الأولى لم تكن ترفع قلبه من مكانه أبدًا وتسير به عبر أصابعها تتجول في كيانه كله كما تفعل جيهان. رفق به القدر حين عاد ضابطًا في الخدمة بوساطة يوسف رشاد طبيب الملك وصديقه. نعم، انضم للحرس الحديدي الذي شكله الملك بقيادة يوسف رشاد، ولماذا لا؟ ألم يكن هذا كله لخدمة ما حدث الليلة؟ ألم يكن جمال يعرف كل خطواته وبات عينًا على ملك وقصر لخاطر تنظيم يهدم القصر على رأس ملكه؟ كانت الشكوك تحيط به دومًا من زملائه، حتى أعضاء الهيئة التي تقود التنظيم، بل إنهم رفضوا انضمامه، لكن جمال أرغمهم، جمال أذكاهم لدرجة أنه جمع عددًا لا بأس به من أنصاف العقول حوله، ضامنًا ولاءهم قبل وطنيتهم، الوحيد الذي يفهم في السياسة بينهم جمال (بعده طبعًا)، لكن السادات يرتضي المقعد الخلفي تواضعًا يعتبرونه خفوتًا، لكن جمال حين اختار صوتًا للحركة والجيش اختار أشهر ضباط مصر لشعب مصر، أليس هو (مع اللواء نجيب) أكثر الأسماء ذيوعًا بين عناصر الجيش وجمهور الوطن؟ أليس هو الوجه الوحيد الذي تحفظه العيون داخل الجيش والبلد منذ براءته في قضية اغتيال أمين عثمان التي تداولتها المحاكم والصحافة شهورًا بصورته وأقواله ومنبريته وراء قفص المحاكم؟ لهذا، حين وصل متأخرًا في الثالثة صباحًا، ووجد الحصار حول مبنى قيادة الجيش، لم يكن في حاجة إلى أن يعرف كلمة السر، فقد أوسع له الضباط والجنود ممرًّا ليمر، لم يسمحوا له بالدخول، لكن وافقوا على وقوفه، فإذا كانت هناك حركة وطنية في الجيش لهذه الليلة فلا بد أن أنور السادات فيها، رحبوا به، بل هنأوه، دون أن يعلموا حتى أنه معهم، عندها ناداه عبد الحكيم كي

يدخل من بوابة المبنى (هل أنا الذي ناديته ليأمرهم بالسماح لي بالمرور أم هو الذي ناداني لما رآني؟)، ثم ها هم الناس سمعوا صوته من الإذاعة يقول «بني وطني»، صحيح أن بني وطنه يجهلون صوته، لكن الضباط في الإذاعة والمذيعين والدنيا كلها ستعرف أنه هو من ألقى البيان، فإن فشلت هذه الحركة وأجهضها فاروق بحركة خديوية توفيقية، فهو إلى أعواد المشنقة كما زهران دنشواي بطل طفولته وحكايات المصاطب والأجران وفوق الأفران في قريته.

أومأ برأسه مبتسمًا لإحسان، وهو يكاد يقول له لن تفلح في معرفة معلومات مني يا ابن البيوتات الهانئة، ليس لأنني لا أملكها (وهذا حق)، بل لأنني أعرف متى أصمت أكثر مما أعرف متى أتكلم، واسأل جمال عني.

فكر إحسان أنه مقذوف به في قلب خبر كبير وحدث أكبر استهواه تمامًا، مع ضابط ممن قاموا بانقلاب منذ ساعات، وسيطًا بين الجيش وعلي ماهر. سيحاول أن يكون متواضعًا، فسبب وجوده هو أن السادات يعرفه جيدًا، وأن إحسان يعرف عنوان بيت علي ماهر وعلي ماهر نفسه. لكن الأسئلة التي يحاول أن يدسها في انطباعاته وحكاياته للسادات الآن لا تفلح في أن تستنطق الرجل، أغلب الظن أنه بل إنهم جميعًا يجهلون الخطوة القادمة. رأى استثارتهم وصخبهم في مبنى أركان الجيش، وهمهم الكبير في أن يسيطروا على الكتائب وقيادات الأسلحة، ويطيحوا باللواءات عن مناصبهم، لكن أبعد من ذلك لم يفكروا، فهم كانوا محتارين حين قرروا إقالة حكومة الهلالي بمكالمة تلفون من يجلبونه مكانه، واسم علي ماهر هو أسبق الأسماء إلى ألسنتهم وليس إلى عقولهم، ثم ما كانوا يعرفون هل يوافق الرجل أم لا، فارتبكوا لما بدا أنه قد يرفض، فتحيروا في بديله، ولم يتفوهوا باسم واحد آخر، بل قرروا التجول بالمكالمات التلفونية

بين كل ضابط وأي معرفة من السياسيين على رجال الدولة، يتشممون من فيهم قد يوافق على رئاسة حكومة يطلبها أو يفرضها الجيش. لكنه يوقن أن علي ماهر سيوافق، أما لماذا فلن يخبر أنور برأيه، فهو يحاول أن يبدو لامباليًا ولامهتمًّا.

إحسان واثق أن أنور السادات الجالس بجواره الآن سيكون بطلًا لرواية من رواياته، منذ جاءه في «روز اليوسف»، كأنما قفص المحكمة يحيطه أينما ذهب، وهو مدرك أن الرجل رواية قد تطول، لكن ماذا سيكون رد فعل علي ماهر أمام ضابط متهم باغتيال الوزير أمين عثمان وهو يدخل بيته؟ فعلي ماهر شقيق رئيس الوزراء الذي اغتالته رصاصات لا تختلف كثيرًا عن تلك التي شقت صدر أمين عثمان وقتلته!

أخبر الخادم مديد القامة، بردائه الأسود المميز، بقفازاته البيضاء النظيفة، ووجهه الأسمر المهذب، أنور السادات وإحسان عبد القدوس، بأن الباشا سيقابلهما حالًا، ثم سأل كليهما عن مشروبه، ومشى تاركًا عينَي السادات تتجولان في بهو القصر، ثم غرفة الاستقبال الوسيعة، والأسوار العالية، والأعمدة الرخامية، والستائر الحريرية، والثريات الضخمة المتدلية، والأرائك بالأطلية الذهبية، والمقاعد المبطنة بالقطيفة، والسجاجيد العجمية، والوسائد القطنية الملفوفة الملونة وتتدلى منها خيوط مذهبة، واللوحات الهائلة المعلقة على الحوائط، والنوافذ المشرعة بدرفات من خشب مشربيات، وتلك الفسقية التي تنثر ماء مترقرقًا فوق صحن من فسيفساء البلاط الصغير المنمنم الملون، وتلك الفازات الطويلة والبيضاوية والدائرية، والورد المنتشر والزهر المنثور في الأركان والزوايا، والمائدة الطويلة الممدودة المكسوة بلوح زجاجي عريض ونقي يغطي خشبها البني. وإذا بعلي ماهر يدخل عليهما، بجسمه القصير، وشاربه

المرسوم، وبدلته الصيفية البيضاء الأنيقة، ورابطة عنقه السوداء المحكمة، وابتسامة واسعة، وذراعين تتسعان لتؤكدا على رحابة الاستقبال، ويشير لهما بالجلوس، وقد تناول صندوق السجائر الصدفي، ودعاهما لالتقاط السجائر، وتشاغل كلٌّ منهم في إشعال سيجارته بأعواد الثقاب الطويلة من علبة عريضة حمراء. جاء السفرجي بردائه الطويل القشيب والمطرز، بفناجين الشاي فوق عربة الشاي الصغيرة مجرورة بعجلات تحدث صوتًا تتشارك فيه مع صكات أعواد الثقاب واشتعال دوائر لهب صغيرة تضيء أفواه السجائر بالحمرة المحروقة.

كان علي ماهر حريصًا جدًّا على الطقوس، أولًا كي يعرف هذا الضابط بزيه العسكري المبالغ في نظافته وأناقته، لمن جاء ومن الذي يزوره، وثانيًا كي يقدم للصحفي إحسان عبد القدوس عرضًا في الثبات والثقة أمام عرض له برئاسة الحكومة. هو لا يطمح إليها، فقد حقق كل ما يريد في حياته وأكثر، نعم هو لا ينسى غدر الملك فاروق الأخير حين جاء به إلى رئاسة الحكومة عقب إقالة النحاس باشا ووفده بعد حريق القاهرة لينقذ بلدًا يحترق، ثم إذا به يقيله بعد شهر، وبدأ فاروق لعبة تغيير الحكومات كل عدة أسابيع، كما لو أنها بدلات يختارها من صوان غرفة نومه، ثم يغير رأيه بعد أن يرتدي الجاكت، فيأتي بغيرها، يزهق منها قبل أن يزررها له خادمه محمد حسن، أقال كمن يقامر في نادي السيارات، هذا الملك الذي رباه على يديه، ووضعه على العرش منذ ستة عشر عامًا، وكان رئيس ديوانه وهو لا يزال صبيًّا غريرًا يتغنى الشعب باسمه ويلهج الناس بحبه بعد وفاة والده الملك المقيت، كانت مصر كلها عند أصابعه وجبة هنية على طبق ذهبي قدمها له علي ماهر بخبرته وحنكته ودهائه، فلا أحد مثله خبير بحكم هذا البلد، هو يعتبر نفسه كذلك ولا يظن نفسه إلا كذلك،

والدليل هؤلاء الضباط حين بحثوا عن منقذ، كما فاروق بالضبط بعد الحريق، لم يجدوا غيره.

أنا علي ماهر، ظللت مستقلًّا عن الأحزاب، لأصبح أقرب ما أكون منها، وأبعد ما أكون عنها، فلست أنا من يكون أقل وأدنى من مصطفى النحاس ليترأسني ويتزعمني، ولا أنا الأضحوكة التي يصنع لها فاروق حزبًا هشًّا لأرأسه، فيسخر مني الشعب، وأتماسخ وأتصاغر أمام السياسيين. حتى أخي الدكتور أحمد ماهر، على مهارته وبراعته، لم ينجُ من مخالب الوفد الذي كان سيدًا من ساداته، وانفصل وأنشأ الحزب السعدي، متخيلًا نفسه خليفة سعد زغلول الحقيقي، فتلاعب به الوفد، ولعب به الملك، وقتله الإخوان المتسربلون بثياب الحزب الوطني. مسكين أخي، مساكين جميعًا، كلهم يذوبون وينتهي دورهم لأنهم قبلوا به. بينما هو رئيسًا للديوان الملكي أو رئيسًا للحكومة، يظل لاعبًا يصنع ملعبه لنفسه، بل قواعد لعبه لا تستسلم لقواعد الآخرين. حتى عندما نفوه خارج القاهرة، واحتجزوه في عزبته، ومنعوه من التحرك لأن هواه ألماني وولاؤه للنازي، وحقد عليه الإنجليز وسلطوا عليه النحاس، انهزم الألمان لكنه لم ينهزم، كسب الوفد لكن علي ماهر لم يخسر. ثم ها هو جيش فاروق الذي يقسم ضباطه بالولاء له، يفعلون به ما فعله الجيش الإنجليزي بدباباته، يرغمونه على تعيين رئيس حكومة، الإنجليز أمروا بالنحاس، وجيش مصر يأمر بعلي ماهر. هل هذه المرة رئيس حكومة مؤقت لوقت معلوم وحرج، جسر يعبر عليه كلاهما، الجيش والملك، أم أنها مرة ثابتة طويلة تصنع له فرصته التي كلما لاحت وباحت خبت وخابت، فرصة أن يكون الرئيس الملك، فهو الأنفع للبلد، والأصلح للحكم، والأنصح للملك، والأعقل للجيش، لكن ماذا لو نجح الملك غدًا في خرق صفوفهم أو تداخل الإنجليز وتدخلوا؟ أما أن ينجح

الملك فجائز جدًّا، أما أن يتدخل الإنجليز فلا أظن، من المستحيل أن يكون هؤلاء الضباط الشبان، بمن فيهم نجيب، قد فعلوها دون أن يدركوا أن الإنجليز لم يعد يعنيهم هذا الملك الأخرق الصبي الذي يرفض أن يكبر.

ـ هل نسمع رأيك يا باشا؟

قالها أنور السادات، بينما علي ماهر يطرد صورة أمين عثمان الغارق في دمائه (وشقيقه أحمد ماهر المضرج بالدم)، وكلاهما على سلالم ودرجات عمارة ما من مخيلته، رد:

ـ لا أستطيع أن أخذل جيش بلادي.

ـ عظيم.

ـ لكن، لي شرط.

صمت السادات، وترقب إحسان، وسط الأدخنة الدائرة في الهواء. صوَّب علي ماهر سهمه نحو السادات:

ـ بل شرطان.

نفث السادات دخانه كثيفًا، فالرجل لم يقل شرطه الأول أصلًا حتى يشترط الثاني! لكن صمته الصبور أجاب علي ماهر بالرضا عن شرطيه المجهولين، وآن له أن يتفضل ويقولهما:

ـ أن يأتي التكليف برئاسة الحكومة من جلالة الملك.

أومأ السادات، وفهم إحسان فورًا أن علي ماهر لا يريد مغاضبة الملك ولا المقامرة مع مقامر، ولا يريد أن يضفي على حركة الجيش شرعية لا تملكها، السهم مدهش في دقته يا ماهر باشا.

قال السادات:

ـ لا بأس، هذا أمر طبيعي.

ثم أضاف:

ـ والثاني؟

ـ أن أكون حرًّا في التشكيل تمامًا.

رد السادات بثقة كاملة:

ـ بلا ذرة تردد.. نعم.

بعد قليل، كان علي ماهر يرد على تلفون من قصر المنتزه يبلغه فيه رئيس الديوان باستقالة حكومة نجيب الهلالي، وأن جلالة الملك تكرم بتكليفه بتشكيل الحكومة الجديدة.

«كان عمر حكومة الهلالي يومًا واحدًا، فماذا يا ترى سيكون عمر حكومتي؟». قالها لنفسه وهو يطلب رقم التلفون الذي أعطاه له أنور السادات. سمع رنة التلفون، ثم رُفعت السماعة بكلمة «أيوه».

ـ من معي؟

ـ اللواء محمد نجيب.

ـ أهلًا يا سيادة اللواء. أنا علي ماهر.

رد نجيب:

ـ مبروك يا معالي دولة رئيس الوزراء.

أدرك علي ماهر أن خبر التكليف وصل الجيش قبل أن يصله:

ـ أنا مسافر باكر للتشرف بالمثول أمام جلالة الملك.

قال نجيب بعد لحظة صمت سمع فيها همهمات بجانبه:

ـ سأمر على دولتكم صباحًا يا باشا.

كان جمال عبد الناصر لحظتها قد وضع أمام نجيب ورقة بالأسماء السبعة، فتحسس نجيب جيبه الذي يطوي ورقة بالأسماء الثمانية.

٩

جلس محمد نجيب خلف ميكروفون الإذاعة العريض القصير، المثبت على مائدة مستطيلة داخل حجرة، حائطها الرابع من زجاج كاشف لما وراءه من مائدة يجلس عليها عدد من الفنيين المختصين في الهندسة الإذاعية. بينما مدير الإذاعة ووجوه عرف فيها ضباط التنظيم المسؤولين عن احتلال الإذاعة الذي جرى فجر اليوم، ينتصبون في اهتمام وانشغال بنظرات متقافزة بين الفرحة والتوتر، يتابعون القائد العام للجيش وهو يخاطب لأول مرة الشعب المصري بصوته، وفي تسجيل حي مباشر، فيسمعون من الرجل الذي سمعوا عنه، بل الآن حتمًا ولا بد أن الملك فاروق المعلَّق في هذه الرقعة من مملكته صورةً على حائط يسمع الآن صوت جيشه يبخ نارًا أو يفح سمًّا في أذنيه. تحمس نجيب للغته وإلقائه ومخارج ألفاظه، رغم أنه يجهل تحديدًا من كتب هذا الكلام الذي يقرأه. ياوره المفاجئ ومدير مكتبه الطازج إسماعيل فريد هو من أبلغه أن الضباط الأحرار يطلبون منه إذاعة بيان للشعب بنفسه، طبعًا فهم أنه جمال من طلب، لكن من كتب فليس مهمًّا، فالسطور ذات خط نسخ جميل وواضح، مما يظن أن خطاط الإذاعة هو الذي تصدى لمهمة نقل ما جاءه من قيادة الجيش، لكن قلب

نجيب كان ينبض كما لحظة ركضه تحت إطلاق الرصاص خلفه وحوله في فلسطين، حيث نالته إحداها فأسقطته وأزحفته، فكان يسمع دقات قلبه تنتفض بنبض جلل. أحكم بأصابعه كابه العسكري الذي لم يخلعه لا هو ولا بذلته منذ ليل الأمس، فتعبأ من حر الصيف ورطوبة الجو وعرق المشاوير ورائحة التوتر وأدخنة السجائر وذرات الرمل وتربيتات الأيدي وعناقات الأجساد المهنئة والمبتهجة والمحفزة. هل يمكن أن تباغته نباهة إسماعيل فريد ويجده قد جهز له في مكتبه بذلة أخرى؟

أحب هذه العبارة، فهي الوحيدة التي كتبها، كانت مطلع البيان الاستهلالي الندائي: «إخواني أبناء وادي النيل»، كانت أحب إليه من «بني وطني» التي بدأوا بها بيان الحركة صباح الأمس. ذِكر النيل ورائحة السودان في أي جملة أو عبارة يطبطب على قلبه، ويبهج روحه، ويعيد له طفولته وشبابه مع والده يوسف نجيب الضابط المصري في السودان. ثم هذه الجملة «يحيا وادي النيل» التي يرددها منذ كان طالبًا في الثانوية في الخرطوم مع أمه زهرة بنت المحلة الكبرى التي تسودَن قلبها منذ جاءت مع والدها، جده الضابط بالجيش المصري بالسودان أيضًا. سيسأل عبد الناصر عن موقف الضباط في السودان من الانقلاب، هل لدينا هناك أعضاء من الضباط الأحرار يا جمال؟ كيف نسي أن يسأله؟!

لشد ما يسرني أن أتحدث إليكم، مع ما أحتمله في
هذه اللحظات من مسؤوليات جسام لا تخفى عليكم.

هو مسرور قطعًا، بل لم يكن مسرورًا مثل هذه اللحظة. لقد استسلم فاروق للأولى حيث عينت نفسي قائدًا للجيش فرضخ، وللثانية فأقال ملبيًا حكومة الهلالي كما قلنا، والثالثة كلف متلهفًا علي ماهر كما أردنا، إنه يُفرط في رفع الرايات البيضاء حتى يبدو أنه لا ألوان لرايات أخرى لديه.

لكن نجيب حرص على أن يضع خطوطًا بنبرة حنجرته تحت جمل وكلمات:

فقد حرصت على أن أُحدثكم بنفسي.

حاول أن تأتي «بنفسي» مثقلة بأكبر حمولة من التواضع وإنكار الذات.

لأقضي على ما ينشره خصومكم وخصوم الوطن من شائعات مغرضة حقيرة.

اتخذت لهجة الصوت طبقة من الغلظة حين نطق «خصوم الوطن»، نعم فأي خصم لنا الآن خصم للوطن، فبالله عليكم نخرج واضعين رؤوسنا على أكفنا لتطهير مصر من مباذلها، والوادي من مفاسده، ولا يكون خصمًا إلا خصمًا للوطن.

لما قرأ في النص قبل أن يذيعه كلمة «حقيرة» بعد «مغرضة»، أخذته خضة، لكنه رآها وصفًا عاديًّا للغاية، ليس فيه ما يسيء في نطقه ومنطقه، فهي حقيرة فعلًا وما في ذلك إلا الصراحة. لم يعرف بالضبط ما الشائعات التي خرجت خلال الساعات الفائتة التي قضاها تجوُّلًا وتفقدًا واستعراضًا فجعلها مغرضة وحقيرة أيضًا. ربما يسمع جمال وصحبه شائعات لم تبلغني، لكن أكثر ما ساءني هو زعم هذه الشائعات المغرضة طبعًا والحقيرة قطعًا أننا نسعى للسيطرة على الحكم. لهذا تجلى صوت تينور أوبرالي في العبارات التالية في البيان:

لقد أعلنا من البداية أغراض حركتنا التي باركتموها من أول لحظة، ذلك لأنكم لم تجدوا فيها ظلمًا لشخص، ولا كسبًا لفرد، بل إننا ننشد الإصلاح والتطهير في الجيش وفي جميع مرافق البلاد، ورفع راية الدستور.

كان صادقًا وهو يقول هذه العبارات صدقًا يمكن أن تستورد منه الدنيا

كلها صدقًا لوفرته وجودته. من أين عرف أن الشعب بارك هذه الحركة من أول لحظة؟ أليست هذه الوجوه التي حيته وهللت له في موكبه في شوارع القاهرة ترسل تبريكاتها إليه؟ لم يرَ خلال الساعات الفائتة من الضباط والجنود وعابري الشوارع وموظفي الإذاعة إلا حبًّا وحبورًا، صحيح أنه بالأمس الأول كان الهدف هو تطهير الجيش، وقبل أن يكتمل اليومان التاليان أضيف الإصلاح والتطهير لكل مرافق البلاد، لكنه ظل على العهد برفع راية الدستور التي مزقها الملك حين عبث به وحين عطله.

حين خرج نجيب بعد إلقاء البيان، كان راضيًا قريرًا وهو يصافح رجال الإذاعة، مبتسمًا وحانيًا ومتلطفًا بكلمة مداعبة، لا هو فهم ما يقوله ولا من سمعه تبينها، بينما رضي الاثنان عنها، فهو اللواء نجيب يخص شخصًا يجهل كنهه بود وابتسامة وكلمة مميزة، فينقلها هذا عن ذاك لذلك، فعلها مع مندوبي الصحف الذين تكالبوا عليه وهو يردهم بيده مبتسمًا كأب يمنع أطفاله من إلحاح طلب العيدية، فهو سيعطيها لهم بعد أن يقبلوه في وجنتيه:

ـ بالراحة عليَّ، حلمكم عليَّ يا حملة الأقلام وشهود الحقيقة.

يتشجعون فيلحون على الاقتراب والدنو، فيدفع أحدَهم ضابطٌ من حراسه فيوبخه نجيب بيده، ويمسك بيده الأخرى مندوب الصحيفة المبعد فيقربه إلى حضنه ويعده:

ـ أنا بابي، وقلبي قبل بابي، مفتوح لكم جميعًا، لكن هذه لحظات الفعل لا القول.

يتأثر المندوب وزملاؤه، فيرقون ويتهللون وينقلون من فم لأذن، هذه المآثر اللطيفة للّواء الأب الذي عانق عجوزًا على باب الإذاعة، وصافح مواطنًا فكهانيًّا على الرصيف وسأله: «هل البطيخ عندك حمار وحلاوة؟». يا للهول! تواضعه ورقته وهو ينهر حراسه عن مدافعة الجمهور

المتجمع على باب الإذاعة في شارع الشريفين، يركب سيارته يحيي النسوة المتجمعات في شرفات العمائر بالشارع، ويلوح بعصاه التي لم يفلتها من يده للهواء يحمل نسائم عصر جديد. همس إسماعيل فريد في أذنه وهو يستقر على مقعدته في أريكة السيارة بأن البوليس الحربي اعتقل مصطفى وعلي أمين.

كان في ظهيرة هذا اليوم في محطة السكة الحديد، يصاحبه جمال عبد الناصر، ويصحبان علي ماهر حتى باب قطاره المتوجه إلى الإسكندرية للمثول أمام الملك. منذ زاره في داره بالجيزة، وحتى أوصله إلى باب الحديد، وعلي ماهر نمر يثب فوق صفيح ساخن. كان يحب علي ماهر، ولكن ليس كمصطفى النحاس، فهو لم يصعد ليكون نحاسًا، ولكنه أيضًا لم يهبط ليكون حسين عامر. وكان يحترم علي ماهر، ليس لأنه مثال في النقاء، بل مثال في تجنب الوحل. لكن جمال عبد الناصر حين دنا من علي ماهر وتدلى، أدرك أن علي ماهر أضأل مما توقَّع، وأصغر مما ظن، إنه يهفو للمنصب الرفيع، بل هو لا يزال يعتقد أصلًا أنه منصب رفيع. ولعله حتى الآن وهو يسأل نجيب، لم يلاحظني، ولم يفطن إطلاقًا لتلك النظرة التي ينظر إليَّ بها نجيب قبل أن يجيب، ولا لتقديمه لي أمام الرجل، ولا للوقفة المساوية المحاذية بيني وبين نجيب، ولا للضباط من حولنا يتوجهون لي ويسمعون مني ونجيب يومئ برأسه لعيني، لم ينتبه من يرى نفسه صاحب مقام رفيع للمقامات التي تحاوره، فكيف به رجل دولة! والله ما أودى البلد في داهية إلا أن يكون علي ماهر أحسن رجال الدولة المتاحين أمامهم في هذه الليلة المتعجلة! كان جمال قد حدد موعد الحركة في أغسطس، ليفرض على الملك عودة الحياة النيابية وإجراء انتخابات ومجيء الوفد لزعامة الأمة هذه المرة بدبابات المصريين وليس الإنجليز،

لكن الخطة تغيرت وتبدلت، وها هو هدفها الآن وهو يلتقي بعلي ماهر يتغير أيضًا وحتمًا.

علي ماهر إذن وهو يهم بركوب القطار، وقد ظن وجود نجيب معه تكريمًا لا استعراضًا لقوة الضباط وحركتهم، يسأل نجيب:

ـ إنتو ناويين توصلوا الدنيا فين؟

ضحك نجيب مقهقهًا بطيبته الساذجة، وقال له:

ـ لغاية ما تبقى أول رئيس للجمهورية.

كيف ضربها نجيب بهذه البراعة التي دغدغت علي ماهر وكادت ترمي به من القطار؟ لقد تعثرت أفكاره في قدميه، وتلخبط فلم يعد يقدر على تحديد بوصلة هؤلاء الضباط، وهو الذي يظن نفسه داهية من دواهي مصر! هل اكتفى الضباط بما فعلوا؟ أم أن نجيب حين يتحدث عن جمهورية، وعني رئيسًا لها، فهو هزل في موضع الجد، أو شفرة في رسالة؟ هل سيطيحون بالملك والملكية؟ ولماذا إذن أذهب إلى الإسكندرية أقابل ملكًا كنت أول من استقبلته ملكًا ومطلوب مني أن أكون آخر من يودعه ملكًا؟

مضى القطار في رأس علي ماهر قبل أن يمضي على قضبانه، ويده تقبض على ورقة الأسماء الستة التي كانت سبعة التي أعطاها له نجيب، كأنها التعويذة التي ستنقذ المومياء، أو التي ستنفث من المقبرة لعنة الفراعنة، فراعنة محمد علي!

* * *

اندفع الجنود على باب القيادة بضرب بروجي القائد، ودخل نجيب بسيارته غير المسقوفة الساحة المكشوفة، والتي غمرها ضوء بازغ من جهات عدة، وتوزعت فيها سيارات ومدرعات وصفوف جنود (تذكر يوسف صديق وهو يحكي له أن حراسة مبنى القيادة كانت سبعة جنود

بخمس أو عشر طلقات، وهم المنوط بهم حراسة قادة جيشهم... الغريب أنهم قاوموا). أسف نجيب، لكنه لم يأسف كثيرًا، ثم نسي أسفه بكثيره وبقليله على موت عشرة جنود في هذه الحركة التي صار لقبها «الحركة المباركة» منذ خرج من الإذاعة وتردد في بيانه: «حركتنا التي باركتموها». لكنه وهو يصعد درجات السلم إلى مكتبه في القيادة، والضباط يتبعونه في الصعود، لم يعلق برأسه من بيانه إلا تلك العبارة التي وهجت في عقله: «بني وطني، اتجهوا بقلوبكم إلى الله العلي القدير وسيروا خلفنا إلى الأمام». كل ما يريده الآن أن يسير الناس خلفنا إلى الأمام، يحتمون بظهورنا درعًا وسندًا، ويسمعون ويطيعون ويثقون ويبقون صفًّا مرصوصًا خلفنا، فنحن سنسير بهم إلى الأمام، لكن من المهم أن يسير خلفي للأمام هؤلاء الضباط التسعة الذين قاموا بهذه الحركة، وها هو صوت أحدهم يضرب طبلة أذنه صخبًا، إنه جمال سالم، وحينها أبانت درفة الباب المفتوحة وجه أخيه صلاح سالم أيضًا. انقبض قلب نجيب رغم أن شفتيه انفرجتا عن ابتسامة!

١٠

كذَّب عينيه ثم لم يصدق أذنيه. الجلبة التي اقتحمت غرفة نومه، اختطفت روحه من سباتها دون أي مرور على مراحل الخروج اليومي المنظم المتدرج من النوم إلى اليقظة، بل فزع اضطربت له كل خلجات جسده الذي انتفخ غيظًا وانكتم كظمًا، من نور محمر خفيض من وناسة أنيقة على جانب الفراش إلى ضوء كثيف يعري الغرفة، فتظهر أشباح طوال عراض كأنها مصبوبة حول سريره، لم يقدر على أن يتقلب في فراشه، فرغم ضخامة جسده وطول قامته فإن الالتفافات والتقلبات على المرتبة ضرورات ما قبل نزوله من فراشه، لكنها الفجاءة التي تقلعه من نظامه اليومي إلى فوضى ترمي عقله بالحجارة، كلما تفادى فكرة سوداء لاحقته الحجارة بفكرة أكثر سوادًا. أيحدث معه هذا وهو مصطفى أمين، الاسم الرنان في الصحافة والسياسة؟ أحقيقي ما يرى؟ لم يكن يومًا مناضلًا سياسيًا (ولا يظن أنه سيكون)، ولم يكن قَطٌّ ممن يراهن على حصان خاسر، بل هو الجوكي نفسه وصاحب السباق وصاحب السبق. لم يصل قَطٌّ إلى حد أن تقبض عليه حكومة أو يعتقله القصر، لا يحرق جسوره، وحين يقتل سمعة أحد لا يترك أثرًا لبصمات أو بقعًا لدم. فكيف

يقف هؤلاء الآن، متجهمين مهاجمين بوجوه كريهة وكارهة؛ ثمانية من الضباط بملابسهم الرسمية يرفعون بنادقهم ومسدساتهم ويشرعونها في وجهه ويكادون يخزقون بها عينيه؟ مسدس واحد كان يكفي لسحب دمه من عروقه، فلمَ كل هذه المسدسات والبنادق؟ يسمع فحيح أنفاسهم، وزمجرة تحت ضروسهم، أيادٍ تجذبه للنزول عن السرير، وأخرى تدفعه للوقوف، وقد ازدحمت بهم غرفة النوم (ترك زوجته في الإسكندرية تكمل صيفها وحضر بالأمس إلى القاهرة ليكون كعادته في فرنها السياسي يعجن ويخبز). بدأ وعيه الصحفي يتفوق على جزعه الإنساني، فيجمع في ذهنه ملاحظات سريعة، وهو يخلع مرتجًا بيجامته، ويرتدي مرتبكًا بنطلونه وقميصه وحمالاته تحت عيونهم، إنهم بوليس حربي، وليسوا شرطة إطلاقًا، ليس من بينهم مخبرون مثلًا، ولا من يرتدي زيًّا مدنيًّا، متحفزون كأنهم يقومون بعمل وطني وليس أمنيًّا، يستغربون أثاث الغرفة، ويستعظمون ما فيها من مظاهر ترف لا يملكونه (ما لا يملكونه يعتبرونه ترفًا!). لن يجرؤ أحد على قرار اعتقاله ثم اعتقاله ثم طريقة اعتقاله إلا وهو يملك أمرًا من أعلى مستوى في القيادة، محمد نجيب نفسه، لكن لماذا؟ كان لحظتها ينهي ارتداء حذائه بعد أن أحكم ربطة جوربيه بطوقي الأستك، وقام وهو يشد قامته، فبرز كرشه أمامه، فلمعت في ذهنه فكرة أراحته أن ثمة خطأ ما، أكيد، أم أنهم يخشون منه ومن جريدته «أخبار اليوم» الأشهر والأكثر توزيعًا والأزحم نجومًا، طبعًا سيقولون إنها جريدة القصر والسراي، ولكن من قال إنها لا يمكن أن تكون جريدة لغيره، ثم مالهم ومال القصر؟ ألم يقولوا إنهم جاءوا ليطهروا الجيش وفرضوا علي ماهر رئيسًا للحكومة؟ يبدو أنهم ينصبون فخًّا للملك، وهل سأمنع أنا الفخ أو أقدر على أن أرفع قدم أحد قبل أن تدوس على عنق فاروق؟ حاول

بسرعة يا مصطفى أن تفك هذا اللغز؟ إنهم يقبضون ويعتقلون كبار قيادات الجيش، ولكنك لست قيادة في الجيش بالتأكيد، صحيح هذا يدفعك إلى الغرور عندما تجلس لتكتب مقالًا، أما الآن فهو يدفعك في ظهرك، عندما يحشرك بينهم الضباط الثمانية (عدد مبالغ فيه، لماذا ثمانية؟ لماذا أصلًا لم يطلبوني في التلفون فأحضر لهم بمنتهى البساطة؟).

حين خرج من الغرفة، ووجد توأمه علي أمين مكبلًا بأيدي ضباط آخرين، وعيناه تطقان قلقًا، وذوى اللمعان الشاهب في عينيه إلى انطفاء منكسر، أدرك الهدف من هذه الجلبة، في هذا التوقيت الذي تبين له، وهو يلبس ساعته ويحكم سوارها على معصمه، أنه الرابعة والنصف صباحًا، وهذا القشلاق من الضباط الذين ليس فيهم واحد بدون نجوم على كتافيته، الهدف إذن هو الفضيحة، والإرهاب. هم يلقنوننا درسًا على غيار الريق في ثالث أيام انقلابهم، لكن لماذا؟ من قال إننا (أنا وأخي) يمكن أن نكون ضدهم؟

حين بدأت درجات السلم تتناقص أمامه في الطريق للخروج من عمارته، وقد وجد الجيران ذوي المناصب والمراتب في البلد، والسفرجية والسواقين والخادمات، يطلون ويزدحمون ويتابعون، فهم أنهم يخافون منه. من هم هؤلاء؟ إن سأل أخاه علي هذا السؤال فسيكون مشغولًا بالبحث عن سبب القبض عليهما، لكن مصطفى ينشغل بـ«مَن» وليس بـ«ماذا»! «ماذا» سهلة، لأننا (يا علي) سلاح، كما أحكموا قبضتهم على كل الأسلحة في الجيش، ولا بد أن يطمئنوا على سلاح الصحافة، ونحن لسنا سلاحًا عاديًا، نحن كما يروجون سلاح القصر والإنجليز ثم الأمريكان، ألا يقولون علينا ذلك؟ يعتبرون العمل الصحفي القائم على المصالح بين كل الأطراف، ويعتقدون أن اللعب مع الجميع، هو لعب ضد الجميع، لذلك أنا وأنت يا علي ثوران أبيضان.

عندما أركبوهما العربات الجيب، وحشروهما بين أكتاف جنود في صندوق العربة، كان مصطفى أمين قد استعاد رباطة جأشه أمام نفسه وأمام أخيه. لست أنا كريم ثابت، ولا أنا أبو الخير نجيب (استغرب أن جاء أبو الخير نجيب تحديدًا في باله الآن، وابتسم رغمًا عنه لما تذكر جريدة «الجمهور المصري» لصاحبها ورئيس تحريرها أبو الخير نجيب، حين أعلنت عن مكافأة ألف جنيه لمن يقتل ضابطًا إنجليزيًّا). أمسك الفكرة في رأسه متشبثًا بالأمل الذي لم يره بعيدًا. نعم لن يستمر غضبهم تجاهي طويلًا عندما يعرفون ما يجهلونه، إنهم يتصورون «أخبار اليوم» صوت الملك وسوطه، لكن أليست هي من شنت حملات ضد القصر في الفترة الماضية؟ كان ملكًا محبوبًا، وهل ينكر أحد أنه كان كذلك في سنواته الأولى؟ نعم صدرت «أخبار اليوم» بعد سنوات حكمه بثماني سنوات، لكنه لم يكن قد بات ما صار عليه.

كانت السيارات العسكرية تمرح في الطرق شبه الخالية في فجر القاهرة الجديد (عنوان يليق بمقال سيكتبه حين تنزاح هذه الغمة)، وهو يقول لنفسه إنه عندما يحققون معه فسيطمئنهم أن الإنجليز لن يتدخلوا لصالح الملك، إنه مصطفى أمين بصحافته وحرفته ودهائه وعلاقته سيمنح هؤلاء الضباط ما لن يمنحه لهم قلم من الأقلام التي كانت زاعقة ضد الملك (ابقوا شوفوا ماذا سيقدم لكم أبو الخير نجيب). عاد وابتسم حتى كاد يضحك، بينما يندهش علي أخوه من ملامح أخيه التي تلمع فيها انبساطات عابرة رغم الموقف الطين الذي توحلا فيه!

أومأ مصطفى لأخيه، وطيف ابتسامة على شفتيه: اطمئن يا علي ولا تقلق، كل شيء سيتغير عندما يقول أخوك لهم ما عرفه من الضابط الأعور!

* * *

لعلع صوت صلاح سالم في غرفة الاجتماعات وهو يصرخ فيهم:

ـ القبض عليهم واجب وطني! مصطفى وعلي أمين رجال الملك وجزء من النظام الذي ثرنا عليه!

أما جمال سالم فقد شارك أخاه الصراخ:

ـ مفيش فايدة، الحل الوحيد من وجهة نظري هو إعدام عيال أمين!

منذ وصل الشقيقان جمال وصلاح سالم وهما يرتعان صخبًا وآراءً وأفكارًا في وجه جمال عبد الناصر، الذي كان يتلقى هذا الصخب بابتسامة بدت بعد ساعات من النقاش والجدل ملولة. وكان صبر عبد الحكيم وباله الطويل لا يجدان أي مشكلة في مد حبلَي الصبر والبال لهما. خالد محيي الدين كان يروح باله عنهما كثيرًا، لعل حالة ابنته المريضة التي كان يطمئن عليها كل فترة بالتلفون، وموعد بدء إيجار شقة المصيف الذي يحل صباحًا، جعلاه مشتتًا. الكلام كثير طويل مثرثر مسترسل عشوائي، أخذهم ساعات، يخلط بين الذكريات والحكايات والآراء التلقائية التي ترتمي على المائدة ثم يلمها أصحابها ثانية، والأفكار الفجائية والخطط العجائبية تضرب بعضها بعضًا في فضاء الغرفة. كمال الدين حسين كان يشارك لمامًا، ويذهب للوضوء والصلاة، فكأنما جمع الصلوات الخمس كلها في الساعات الخمس التي ظلوا يتباحثون فيها. بينما حسن إبراهيم حافَظ على درجة حماسه وهدوئه في الساعات كلها، كأنه يزنهما بكفتين طوال الوقت. أما زكريا محيي الدين فيدخل في النقاش عند النقاط التي تبدو مهمة، ويتجاهل غيرها منشغلًا بكتابة نقاط في ورق أمامه. أما عبد اللطيف البغدادي فقد بذل جهدًا كبيرًا ليحاول إعادة الحوار إلى نقطة محددة بديلًا عن التشتت، وحين ينجح يجرهم انفلات صلاح وجمال وانفعالهما على الصغيرة والكبيرة إلى شتات النقاط مرات أخرى. أما

أنور السادات فقد كان يوافقهم جميعًا فيما يذهبون إليه، ويردد كلمة «صح» بعد أي جملة يقولها جمال، لم يفرط في الحديث، ولم يبالغ في الصمت، ولم يبخل في القهقهة حين يتجلى صلاح سالم بسباب، أو ينطر جمال سالم لعناته الموزعة بالعدل على كل من يأتي ذكره في الساعات التي طالت مع السجائر والدخان، مع ساندويتشات الفول والطعمية، مع فكات أربطة العنق، مع خلع جواكت البدل، مع فناجين القهوة وأكواب الشاي التي تحوَّلت إلى منفضات للسجائر وسلات لعلب السجائر المطوية والمكرمشة.

لم يكن أحد منهم يتخيل ما يتناقشون فيه الآن، ولهذا ظلوا يناقشونه ألف مرة حتى يقتنعوا أن ما يفعلون علم في واقع وليس حلمًا في منام. كانوا يقررون خلع الملك، وفي سياق النقاش دخل عشرون موضوعًا آخر، مع مائة مكالمة تلفونية، مع استعجال جمال عبد الناصر لهم لحسم الأمر قبل عودة نجيب من الإذاعة، وكانوا قد قطعوا حوارهم منذ قليل للاستماع إلى بيان نجيب.

لم يكن جمال سالم ولا أخوه صلاح قد شاركا بشيء ليلة الانقلاب أو الحركة المباركة كما وصفها نجيب، ففي قلبيهما شيء من غصة جعلتهما يكثران من الكلام، ويرفعان الأسقف، ويزايدان على الجميع. كان أحدهما في رفح، والثاني في العريش، ليلة الحركة، وجاءا على عجلٍ بعدما بات كل شيء تحت السيطرة، فإن لم يشاركا في الحركة فلا بد أن يشاركا في السيطرة.

صلاح بنظارته السوداء التي لا يتخلى عنها أبدًا لرمد في عينيه، بين كل خمس كلمات يقولها يعود ليروي كيف سيطروا على القوات في العريش (لم تكن القوات هناك شيئًا مذكورًا، ودورها كان محدودًا، وأغلبها كان

في الطريق إلى القاهرة، وهذا ما يعلمه كل زملائه، لكنهم آثروا إرضاءه بالموافقة على خطورة ما فعل، فهو إن تكلم لا يسكت وإن تعصَّب لا يهدأ). صلعته البيضاء الخالية من أي شعر تلمع بالعرق، وشاربه الأسود الفاحم مغبر بدخان السجائر.

بينما جمال سالم، شقيقه الأكبر، منذ انضمامه إلى التنظيم وهو الأعلى صوتًا والأكثر غضبًا، ولا يسمح لأحد بأن يسبقه في الكلام أو ينهي الحوار دون أن يعلق هو عليه. ربما طريقة انضمامه إليهم هي التي جعلته على هذا النحو، يريد أن يسابقهم، ويسعى للتفوق على أي فكرة يطرحونها. لقد جاء مصاحبًا ذات مرة عبد اللطيف البغدادي لاجتماع بينهم، ولم يكن يعرفه أحدٌ منهم إلا جمال عبد الناصر. هو ضابط في القوات الجوية، سقط بطائرته أثناء تدريب عسكري، فتهشمت ضلوعه وعظامه وحوضه، وسافر ثلاث سنوات للعلاج، ورجع معافى، لكن يبدو أن الحادثة وربما العلاج أو كسورًا طالت نقطة ما من جمجمته فجعلته عصبيًّا إلى درجة الانفعال الهستيري المفاجئ، يخبط ويضرب ويكسر ويرغي ويزبد ويصفع ويسب ويشتم، ثم بعدها يهدأ ويرق وأحيانًا يبكي. طبعًا لم يعرفوا هذا في أول ليلة، فقد تحدثوا في عموم الكلام وظواهر المشكلات في البلد، إذ لم يكن جمال سالم عضوًا في التنظيم، وكان مجهولًا لهم، لكنه معرفة البغدادي، وكلامه لطيف، وروحه وطنية، ثم هو شقيق صلاح سالم زميلهم في التنظيم الذي كان غائبًا في تلك الجلسة. لم يفاتحهم صلاح في انضمام أخيه، ولا يظنون أنه فاتح أخاه في وجود التنظيم أو الانضمام إليه أصلًا، وإلا كان أخبرهم. انفضت الجلسة التي لم تصبح اجتماعًا بمجرد أن دخلها جمال سالم، الغريب عنهم. لم يسأل أحدهم البغدادي عن سر مجيئه بصديقه الطويل المنفعل معه، ثم في الاجتماع التالي فوجئوا بأنه هو نفسه بطوله

وانفعاله قد حضر، وأخذ يناقش ويقترح ويعرض ما يجب أن نفعله في الجيش، فسأل أحدهم زملاءه:

ـ هل الأخ جمال سالم معنا؟!

انتفض جمال غاضبًا وصائحًا وشاعرًا بكبريائه وقد انشرخت (ألا تكفيه عظامه المشروخة)، واندفع ناحية باب الشقة، يخبط المقاعد في طريقه، ويرزع فيما يصادفه، فقاموا واحتضنوه وأجلسوه مرة أخرى بعد تمنُّع وتخشُّب، وقال له عبد الناصر:

ـ خلاص، إنت واحد من التنظيم من النهارده.

ومنذ يومها وجمال سالم لا يكتفي بانضمامه المدفوع بالصدفة، فملأ وجوده صخبًا، وكان العازب الوحيد فيهم، فكانت شقته حتى سافر للخدمة في سيناء ملجأ الاجتماعات، خصوصًا أن كل ما كانوا يفعلونه على مدى العامين الماضيين هو تجنيد الأصدقاء من الضباط الذين يتوسمون فيهم الشجاعة والوطنية ويكونون موضع ثقة (لم يتجاوز عددهم قبيل القيام بالحركة ثمانين ضابطًا، كلهم من الرتب الأصغر، فيما عدا ثلاثة أو أربعة من البكباشية)، وتوزيع المنشورات (حيث يتسلم كل واحد فيهم عددًا من المنشورات، ويضع كل منشور في ظرف، ويكتب عليه اسم وعنوان الضابط الذي يستهدفون حصوله على المنشور، ثم ينزل كل واحد فيهم بسيارته أو سيارة صديق أو حتى بالتاكسي، ويلقون المظاريف في صناديق بريد مختلفة في أحياء وشوارع متباعدة حتى لا يتتبع أحد مسار هذه الخطابات).

مضت الثماني والأربعون ساعة على انقلابهم الذي سموه «حركة»، وجعلها نجيب «مباركة»، ولم يجد جمال عبد الناصر في جدولهم ما يفعلونه بعدها، فالخطة انتهت، والأهداف تحققت، لكن هذا النجاح الذي بدا أسهل من أن يكون حقيقيًّا دفعهم إلى العلو بالصوت والطموح، حتى

إنهم شعروا أن شعارات مظاهرات الطلبة بسقوط الملك يمكن أن تتحقق فعلًا، لماذا لا يسقط؟ من يضمن أنه إن لم يسقط فقد يسقطنا؟

من كان يتصور أن هؤلاء التسعة الذين شكلوا من أنفسهم مجلس قيادة للثمانين أو التسعين ضابطًا الذين جندوهم في تنظيمهم يجلسون الآن لطرد الملك؟!

لكن قبل الانتهاء من الملك، قرروا الانتهاء من مصطفى وعلي أمين. كانت قضيتهما قد فرضت عنوانها عليهم حين أخبرهم جمال عبد الناصر أن البوليس الحربي نفذ قرار اعتقال الأخوين. الغريب أن أحدًا لم يسأل لماذا، وكأنها مسألة عادية من مستلزمات الحركة المباركة أن يتم القبض على مصطفى وعلي أمين. طلب جمال عبد الناصر من زكريا محيي الدين قراءة البيان الذي سيوزَّع على الصحف، فخطفه صلاح سالم من يده، وبدأ صوته يتشكل بنبرة متلذذة كلما واصل سطور البيان:

> نما إلى علم القيادة العامة للقوات المسلحة من مصادر مختلفة أن الأستاذين (وعلى إيه الأستاذين ؟ دو لَا و لاد كلب! كان هذا جمال سالم يلعن مقاطعًا) مصطفى وعلي أمين، على اتصال بأفراد يهدفون إلى هدم حركتنا الوطنية المباركة، ولم يسعنا في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها البلاد سوى اعتقالهما، وقد تم ذلك اليوم. وغني عن البيان أن أمر اعتقالهما كفردين تحوم حولهما الشكوك، وليس له أدنى علاقة بأسرة الصحافة، وسوف يُطلق سراحهما فورًا بمجرد عودة الأمور إلى مجاريها الطبيعية.
>
> القائد العام اللواء أركان حرب محمد نجيب

هاج جمال سالم، ولم يتمكن صلاح من أن يسبقه في التهيج:

ـ يعني سوف نطلق سراحهما فورًا! وعلى إيه اعتقلناهم؟!

ثم لعلع صلاح بأن اعتقالهما عمل وطني، فزاد عليه جمال سالم بضرورة إعدامهما.

لكن أحدًا لم يستفهم: مَن هي المصادر التي عرفنا منها المعلومة؟ ومَن هم الأفراد الذين اتصل بهم مصطفى وعلي أمين؟

قال جمال عبد الناصر، وقد فاض به الملل:

ـ نرجع لمسألة فاروق؟

بذلوا مجهودًا للتخلي عن لعن مصطفى وعلي أمين، وكان القرار قد جاء من عبد الناصر:

ـ سنوجه له إنذارًا بالتخلي عن العرش لولي العهد فؤاد.

ثم أضاف:

ـ وغدًا.

ثم عاد وأتم:

ـ وفي السادسة مساءً.

انتعشوا وانتشوا، وكان جمال سالم يصرخ غاضبًا فيهم:

ـ وبعدين نعدمه.

كان محمد نجيب قد دلف ساعتها إلى الغرفة.

١١

كل شيء على ما يرام في كورنيش الإسكندرية هذا الصباح، لا غرابة في بداهة كل الأشياء الطبيعية: مصطافون بملابس البحر يعبرون الطريق نحو الشواطئ، يحمل بعضهم مظلات البحر المطوية الثقيلة وحقائب الأطعمة، واندفاعات الأطفال يروضها الكبار، عربات المثلجات الخشبية، المتسكعون عند سور الكورنيش يتطلعون إلى رمال الشاطئ وصخب البهجة القريب، الموج المتلاطم في انكساره عند وصوله إلى أقدام الماشين متنزهين على حواف البحر في أزمنة العطلة عن العمل والتفكير، حركة الشوارع تليق بنهاية شهر يوليو.

هل سمع هؤلاء بيانات الجيش في الإذاعة؟ هل تجاوزوها على اعتبار أن الصيف سوف ينتهي لكن السياسة في مصر لا تنتهي أبدًا؟ هل قرأوا الصحف حين تعلن بعضها خجلى عن حركة جيش تسعى لتطهير جيشها؟ (بعد أربع وعشرين ساعة صارت تسعى أيضًا لتطهير بقية مرافق البلاد. اعتادوا هم تعبير «تطهير» الذي أطلقه نجيب الهلالي منذ شهور، قاصدًا منه الإطاحة بأصدقاء وحلفاء حزب الوفد من الحكم، وظنه البعض تطهيرًا للبلد من رجالات الملك، وعمومًا انتهى الظن باليقين، فأطيح بالتطهير والمطهر والمتطهر).

لمحت بعض العيون تلك السيارة الحمراء (لا سيارات حمراء في مصر إلا سيارات الملك فقط) التي شقت الكورنيش بسرعة كأنها تُطارَد أو تُطارِد. جلس الملك فاروق ببدانته المفرطة، وبدلته البيضاء الكاملة، يملأ مقعد السائق، يقود سيارته بنفسه على كورنيش الإسكندرية. لكن فاروق اعتقد أنه شجاع، لدرجة تكفي أنه وحده في سيارة وحيدة وبلا مواكب ولا حراسات يتحدى أي خطر، ويحمي زوجته وابنه وولي عهده. كانت ناريمان في المقعد الخلفي ترتجف من الخوف مما تسمعه من حركة جيش في القاهرة، ومن فزع أمها التي تجيد حشو عقلها بالهلع وتحشره في قلبها حشرًا، ومن سرعة هذه السيارة التي يقودها زوجها الملك بنفسه، تهدر كأنها في سباق سيارات مما يدعي دائمًا أنه يكسبها. ابنها ولي العهد الرضيع في حضن مربيته وممرضته الإنجليزية «آن شيرمسيد» المتفانية في صمتها، وبنات الملك الثلاث في سيارة خلفهم تحاول أن تلحق بهم. صوت أنفاس فاروق يبدو عاليًا ومتأرجحًا، لكنه أخرج كل غضبه في ضغط حذائه على محرك السرعة، دون أن يلتفت إلى حسن عاكف طياره الخاص الذي جلس بجواره بملابسه العسكرية، مكورًا في كتلة من القلق والترقب، وقابضًا على بندقية قصيرة وضعها بين ساقيه. رغمًا عنه ابتسم فاروق، فأول طلقة يمكن أن تخرج من هذه البندقية قد تنسف خصيتي طياره الخاص، لكنه كان ممتنًّا بما فعل، بينما عاكف كسيرًا بما فشل.

مرت حوادث الليلة الليلاء التي عاشها (وطارها) عاكف أمام عينيه اللتين لا تريان في الكورنيش إلا ضبابًا كالذي اخترقه بطائرته حين سمع ما يفعله الضباط في القاهرة. قرر أن يفعلها، لا الملك أمره، ولا هو أخبره، نبضات قلبه كانت أعلى من هدير مروحة الطائرة «الداكوتا» التي قادها وحيدًا، وظل كرسي مساعد الطيار خاليًا، فلا وقت لاستدعائه، وهو

قادر عليها وحده في غبشة هذا الصبح الذي يتابع ألوان السماء تنتقل من الأسود إلى الأحمر الذي ينفرج إلى البرتقالي ثم ينفسح إلى اللون الأبيض المزرق في طريقه إلى القاهرة. وصل حيث طائرات السرب الملكي في مطار النزهة، لم يكن ضباط وجنود المطار أعلم بما خفي في العاصمة، وكان عددهم محدودًا وأسئلتهم معدومة، فقد أعدوا الهليكوبتر الحربية على نحو عجول، فقد كان يصرخ فيهم ويحثهم على ملء الوقود (ليس مهمًّا الثمانمائة لتر، بل يكفي ما يصل بي إلى مطار ألماظة)، وشحم المروحة، والتأكد من الزيت. وبينما كانوا يعملون بهمة الإحساس بتوتر قائدهم ياور الملك وطياره، كان هو يركب مقعده في الطائرة، ويرتدي سماعتيه، ويحرك مفاتيح عجلة القيادة، وهم يجمعون معداتهم، وينزعون خراطيمهم، ويركضون تحت الطائرة مبتعدين، بينما أزيز المروحة ذات الريشات الثلاث قد حطم صمت الليل، ثم علا صوت المحركات مع ارتفاع الطائرة تحلق فوق أرض المطار.

الخطة رُسمت وتشكلت في ذهن عاكف، سوف يهبط مطار ألماظة، حيث طائرات السرب الملكي بتمامها، وينهي تحرك الضباط المتمردين بضربة واحدة ونهائية، لن يسمح لهذه الثلة المارقة بأن تهدد عرش مصر ومصر كلها. كم مرة سمع عن تنظيمات داخل الجيش تنخر كالسوس، وحيدر باشا يهون من شأنها، ويتبجح بأنهم شوية عيال يلعبون لعب عيال!

كان عاكف يستثمر كل خبراته ومهاراته في أن يلتزم مسارًا مختصرًا، وبسرعة مائتي عقدة، حيث يستنفد كل قدرات طائرته، فيصل بسرعة ثلاثمائة وسبعين كيلو في الساعة إلى ألماظة في أقل من ثلاثين دقيقة. إنه لن يعود بها أصلًا، فالسرب الملكي كله سيكون تحت إمرته بعد دقائق، فها هو مطار ألماظة منبسط أمامه، أضواؤه وهناجره وبرجه وأرضه المسفلتة

الممتدة. لمح عددًا من الأشباح في ممرات المطار، ولكن الأضواء الناحلة لا تشي بحياة في المطار. هبط بطائرته في الحظيرة الخالية، وفتح باب الطائرة ووثب إلى الأرض، وجرى متقافزًا إلى داخل مبنى المطار، والغريب أنه لم يجد أحدًا! أي ضباط هؤلاء الذين يحتلون مبنى قيادة الجيش ولا يسيطرون على المطار العسكري؟! صادف عددًا من وجوه العاملين نصف النائمة والمرتبكة لرؤيته في هذا التوقيت، لكنها لم تفعل أكثر من الدهشة، بينما انطلق إلى غرفته، ففتح بابها وأضاء نورها رغم أن الصبح قد غمرها، فكشف أثاثها الأنيق، وصورة الملك المعلقة خلف مكتبه. أمسك بالتلفون وأدار قرصًا وهو يجر باب درج مكتبه ويخرج دفتره المليء بأرقام تلفونات طياري السرب. اتصل بمدكور أبو العز قائد السرب الملكي، وبالمهندس عبد الحميد محمود، والنقيب عبد المجيد نعمان، وأمرهم بالنزول فورًا من بيوتهم، والقدوم إلى مطار ألماظة. كان يعرف أنهم يسكنون في قشلاقات العباسية أو أقرب، وألح عليهم أن يأتوا بسياراتهم الخاصة، أو في سيارة واحدة. «اجمعوا بعضكم، وتعالوا الآن فورًا». أنهى المكالمات، وخرج يتحسس ما الذي يجري في المطار الخالي. لمح الأشباح مرة أخرى، لكنها تبدو خارج مبنى المطار، هناك عند البوابة الرئيسية، وعند أسوار المطار الخارجية، عدد من سيارات الجيب، ووقفة ضباط بزي الطيارين. إذن هؤلاء المتمردون يمنعون الطيارين من الدخول، فكيف سيتصرف مدكور ورجاله؟ بدت الخطة المرسومة تتلقى أول ضربة لها، فما العمل إذا لم يتمكن هؤلاء الطيارون من المجيء؟ نطت الفكرة في رأسه، وعاد إلى مكتبه، فاتصل بآخرين من ذات الدفتر كي يوسع عدد القادمين، فإن نجح أيهم في الوصول فقد كسبت خطته. أغلق ستائر غرفته، وأطفأ كل ضوء ممكن، واستغرب أن أحدًا من العاملين

الذين اندهشوا لرؤيته لم يبلغوا حتى الآن الضباط المحاصرين للمطار. كتم توتره في بطنه، فأحس تقلصًا في أمعائه، وحاول إشعال سيجاره ثم سرعان ما أطفأه حتى لا يجذب الدخان أو ربما الرائحة الأنوف المتشممة. لم تمضِ دقائق كثيرة وإن أحسها بطيئة وثقيلة، حتى سمع أصواتًا تزعق خارج البوابة. خلع جاكت بذلته العسكرية، وأبقى على رابطة عنقه محكمة حول ياقة قميصه الأبيض، وتسلل من الغرفة إلى الممرات ثم إلى البوابة الداخلية، تسمع تلك الخناقة التي بدأت ترتفع نبراتها وتخشن ألفاظها. فهم أن قائد السرب حسن إبراهيم من ضباط التنظيم المتمرد، وقد أعلن سيطرته على المطار، بينما مدكور أبو العز يشخط فيه أنه ليس من حقه، وأنه أعلى منه رتبة (حصل خلاف حاد على الرتبة والأقدمية كأنها أصل المشكلة). شارك عبد المجيد نعمان في التغاضب، لم يعرف ماذا يفعل عاكف الآن، وحتى إن دخلوا فإنهم انكشفوا، وسوف يتابعهم هؤلاء الضباط بحسن إبراهيمهم، ولن يجدي ذلك نفعًا. يبدو أن حسمًا قد انتهى إليه الأمر، فقد ألقوا القبض على مدكور أبو العز، ومع ملاعنات واعتراضات كان من الواضح أنهم أركبوه سيارة معتقلًا، وصحبه حسن إبراهيم إلى مبنى قيادة الجيش.

تبلل عاكف بعرقه وتوتره، لكنه صمم أن يواصل التحرك حتى لو كان وحده. ليس أمامه الآن إلا الاعتماد على نفسه، والأمر لا يتطلب إلا طائرة واحدة. يا ليته فعلها وحلق فوق مبنى القيادة كما رسم خطته! وبدلًا من أن يكون السرب كله أو بعضه معه، فليكن هو وحده، المسألة لا تستلزم إلا قنبلة فوق هذا المبنى، حتى لو ألقاها بيده من نافذة قمرة القيادة وليس بمدافع طائرته. طبعًا هي فكرة ساذجة، لكن من قال إن السذاجة لا تنقذك ساعة الشدة؟ عاد إلى الغرفة بسرعة، وارتدى سترته مرة أخرى، ثم لاحت

الفكرة في خاطره تلمع، أدار قرص التلفون (أفضل قرار اتخذه هو خط مباشر في مكتبه)، واتصل بضباط السرب الذين كان قد استبعد الاتصال بهم في المكالمتين السابقتين (كان الدفتر قد جاب آخر قائمته فعلًا)، وطلب منهم فردًا وراء الآخر في جملة ورد غطائها، أن يسبقوه إلى مطار إمبابة، صحيح أنه صغير ومتعب لكنه المتاح الآن وبلا رقابة ولا حراسة، فهي فكرة لن تأتي على أذهان المتمردين. «لتحضروا إلى مطار إمبابة، وسوف أنتظركم هناك بطائرتي «الداكوتا»». وضع سماعة التلفون عند آخر جملة مع آخر من اتصل بهم، فإذا بالباب ينفتح، كأنما يرتطم في الحائط أو على الأرض، ويندفع أربعة من الطيارين. هلع وأحس موتًا مطبقًا، لكنه سرعان ما طق من السعادة الغامرة، فقد أفلت الطيارون الذين استدعاهم من الكمائن على الطرق ومن قوات الاحتجاز أمام المطار ووصلوا إليه. حمد الله على هذه المنحة العظيمة، واستقبلهم بأحضان سريعة لا تليق بالحدث ولا بالوقت، لكنه أفرغ في المعانقة شحنة عاطفته الملتهبة، ثم تسللوا خطفًا نحو حظيرة الطائرات، كانوا صفًّا مكشوفًا للغاية تحت ضوء النهار وفي ساحة المطار الواسعة الفارغة، وبدقات الأحذية العسكرية القارعة على الأسفلت، تمكنوا من الوصول إلى الحظيرة، تفرقوا كلٌّ إلى طائرته، نطوا فوق سلالم الطائرات القصيرة، ولجوا داخل قمرات القيادة، بدأوا في التشغيل، بينما كان آخرون يتحققون من أجسام الطائرات ويزيحون الأثقال الحديدية أمام العجلات ويفتحون أبواب الحظيرة العالية الهائلة حتى تخرج منها الطائرات، بدأت المراوح في الدوران، والمحركات في العمل، والأكف تشير بينهم على تمام الأمور والتأهب للإقلاع، وقد وضعوا السماعات، ولفوا المفاتيح، وحركوا الأذرع. لكن فجأة لاح لوري ضخم يملأ سطحه المكشوف جنود شاهروا الأسلحة، يندفع بسرعة راعدة

نحو الحظيرة، وزخات الرصاص تدوي ناحية الطائرات، فتصيب أجنحة، وتدوي شررًا ورصاصًا مقذوفًا في المراوح، فتلتف الريش بسرعتها تتخبط في الرصاصات، فتقرقع وتفرقع في تصادم المعادن الصلبة. حين أوشك اللوري على الوقوف والجنود على القفز من جوانبه وحصار الطائرات بالرصاص، كان حسن عاكف في معجزته المدهشة يقود طائرة هليكوبتر من طراز «سيكورسكي»، ويطير بها على ارتفاع عدة أمتار داخل الحظيرة ثم ينقض بها على الجنود الذين هلعوا من الطائرة المحلقة فوق رؤوسهم مباشرة، فرموا أنفسهم على الأرض، يجرون مفزوعين تحت حدود تماسها، وزحف آخرون على الأسفلت منبطحين. تركهم حسن عاكف وهو يلعن ويسب ويتحدى وينجو بطائرته التي أدرك أن رصاصات أصابت غطاء ماكينتها، لكنه الآن في سماء ألماظة وقد قرر التوجه فورًا إلى مطار أنشاص، الأقرب، والذي ظنه أكثر أمنًا.

كانت خطته تتمزق في رأسه، ويبحث عن خطة أخرى لذات الهدف، وإن فهم الآن أنهم سيكونون مستعدين رغم ما بدا أن الرتق في خطة الانقلاب أوسع مما يتخيل. لكن خطته هي الأخرى امتلأت بالثقوب، أكبرها هذا الثقب في الطائرة التي يقودها، ودخانها الذي بدأ يهب ويهبب هواءه، والزيت الذي بدأ يتراجع ويتساقط فوق رؤوس أو على شجر في مزارع، أو يأخذه الهواء إلى الفناء. كان ارتفاع الطائرة منخفضًا حتى خشي أن تكون الأشجار في الطريق إلى أنشاص لم تشهد تهذيبًا وتقضيبًا في هذا الموسم، فيذهب مع خطته إلى جحيم الحريق أو هوة السقوط. كانت أفكاره تتزاحم في رأسه حينما هبط في مطار أنشاص آمنًا حالفًا بالله أن الله معه. قفز من طائرته حتى أحس وجعًا في ركبته أو جزعًا في جذعه. يعرف جيدًا إلى أين يذهب وسط هذا الصمت الذي يغلف المطار

الصغير، وتلك الغفلة التي ينعم بها العدد القليل المتناثر في المبنى البعيد عن مهبط الطائرة الوحيدة في المطار كله. اندفع نحو باب مبنى صغير في أطراف المطار عند ساحة الإقلاع والهبوط، ودخل منه إلى باب أصغر، فتحه بسهولة بمفتاح أخرجه من سلسلة مفاتيح لا تفارق جيبه، ونزل عدة درجات سلم، فوجد نفسه في قبو الاتصال السري، حيث مخبأ لا يعلمه إلا الملك وخواصه، يملك خطًّا سريًّا للاتصال، لكنه سيتصل برقم ليس سريًّا وموضوعًا ولا شك تحت المراقبة، بل من سيتصل به الآن واحد من هؤلاء النجيبيين المتمردين باليقين. أدار قرص التلفون، وطلب رقم قصر عابدين، بعد عدة رنات لم تطل رد أحدهم:

ـ أنا حسن عاكف ياور الملك وقائد طائرته.

ـ أيوه يا أفندم.

ـ أنا أتكلم من مطار فاروق، وأريد أن يحضر لي أي طيار من السرب الملكي.

ـ أوامرك يا أفندم.

كانت سيارات محملة بالجنود تنطلق الآن من قصر عابدين إلى مطار الملك فاروق، وهو المطار المدني الرسمي للبلد، للقبض على حسن عاكف أخيرًا، بينما كان عاكف نفسه يحاول تشغيل طائرة «سي ستة وأربعين» الأمريكية، متعبًا ومجهدًا ومحاولًا الحفاظ على هدوء الطائرة وهدوئه، وعلى السرعة والدقة في تشغيل طائرة ضخمة وقديمة لم تقلع من مطار أنشاص منذ الحرب العالمية تقريبًا، وتحتاج إلى شخصين على الأقل لإدارتها. صعد فوق جناحها، وهبط تحت محركها، ووقف عند إطاراتها، ودخل إلى قمرتها، ثم ذهب إلى مروحتيها، ثم تحقق من وقودها، ثم لف مقابضها، ثم عاد إلى قمرة القيادة فشغل مفاتيح وحرك أذرعًا، ثم وثب

إلى باب ففتحه، ثم عاد وأغلقه، دار حولها وسمع أزيزها، ثم أزاح الأثقال الحديدية تحتها، كان يلتفت باحثًا عمن يبحث عنه، ويدور بعينيه قلقًا في الظلال حول المباني وهياكل الطائرات العتيقة الواقفة، وتأخذه اللمعات الخاطفات لأشعة الشمس على الأسفلت والزجاج ومعدن الطائرة. كانت روحه قد راحت، وبدنه قد تفكك، وهو يضع سماعتي الطيار على أذنيه، ويسوق الطائرة على المهبط بطيئًا، فأقل بطئًا، فأكثر سرعة، فأسرع سرعة، فصعود وإقلاع، فطيران وتحليق، فالوقت يقتله بالتوتر متجهًا إلى مطار الدخيلة بالإسكندرية. حسب سرعة الطيران مع ضخامة الطائرة مع عقدات الريح مع درجة الضباب وكثافة السحب فوق الصحراء الغربية التي طار فوقها تفاديًا للرقابة والملاحقة وسعيًا للمراوغة والإفلات، ووجد أن الوقت الذي يحتاج إليه للوصول إلى الدخيلة بالإسكندرية اثنتين وخمسين دقيقة (بلغت أكثر من ساعة حين وصل). هبط بالطائرة في مهبط الدخيلة، ونزل من سلم قمرة القيادة يشعر بحمى تجتاح عقله.

حين وجد عدلي الشافعي وحيدًا أمامه، طلب منه تسليمه سيارة جيب من المطار، فمنحه إياها بعد كلام فارغ حول اقتراحه بالإقلاع بطائرة هليكوبتر حتى مبنى قيادة الجيش والتفاوض باسم الملك مع ضباط نجيب، رفض حسن عاكف اقتراح مرؤوسه المفخخ، وصمم على الحصول على السيارة الجيب، ولم يجد الشافعي مفرًّا من إبلاغه أن أمرًا صدر باعتقاله، فابتسم عاكف، فقد كانوا يحاولون قتله منذ ساعتين تقريبًا، فالاعتقال منزلة أقل من أن ينزل إليها ببساطة. كان يعلم أن عدلي الشافعي لن يمانع في القبض عليه، لكن ليس بيده، فالصداقة بينهما لا تسمح بهذه النذالة أو على الأقل التسرع في هذه النذالة. ركب السيارة الجيب، وانطلق إلى قصر المنتزه، وقد وصله في الحادية عشرة صباحًا، ومضى بالسيارة حتى مدخل